

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السابع والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السابع والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(بِالصِّدْقِ) : الذى هو عين الحق ، وهو ما جاء به النبى ﷺ ، وفى ذروته القرآن الكريم

(مَثْوًى) : مقام ومسكن ، من : ثوى بالمكان يثوى ثَواءً وثُويًّا إذا أقام به .

التفسير

٣٢ - (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ، وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) :

ذكرت الآية السابقة تخاصم المشركين عند الله يوم القيامة ، إذ يقول النبى ﷺ لهم : إنى بلَّغت فكذبتم ، واجتهدت فى الدعوة فلججتم فى الخصومة والعناد ، فيعتذرون بما لا طائل تحته ، وجاءت هذه الآية بعدها بيانًا لحكم الله عليهم وعلى غيرهم من سائر المكذبين للرسل .

والمعنى : لا أحد أشد ظلمًا ، ولا أقبح افتراءً واختلاقًا ممن اجترأ على مقام الألوهية ، وكذَب على الله فادَّعى معه الشريك أو نسب له الولد ، أو غير ذلك من أنواع الشرك ، وَغَلَا فى هذا وتجاوز مفاجئًا من غير رويَّة ولا تأمُّل فكذَّب بالأمر الذى هو عين الحق ،

وذات الصدق واليقين ، مما جاء به رسول الله ﷺ من الدعوة إلى توحيد الله ، والقرآن الكريم الذى هو أقوى برهان ، وأصدق بيان ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وقوله تعالى : (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) بأسلوب الاستفهام الداخل على النفى لينفيه تقريرٌ وتأكيدٌ للجزاء الذى ينتظر هؤلاء المكذبين ، أى : أن فى جهنم مثوى لهم أى : مقامًا متسعًا ومسكنًا دائمًا خالدًا جزاء ما افتروا على الله – سبحانه – وما سارعوا إليه من تكذيب رسوله ﷺ .

ووضع الظاهر فى قوله : (لِلْكَافِرِينَ) موضع الضمير أى : (لهم) لتسجيل الكفر عليهم وتأكيد استحقاقهم للخلود فيها لا ينفكون عنها ولا تنفكُّ عنهم .

٣٣ – (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) :

الذى جاء بالصدق وصدق به هو محمد – صلى الله عليه وسلم – كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس ، والمؤمنون داخلون بحكم التبعية له فهو إمامهم ، ولذلك أخبر عنه بقوله : (أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) . ومثل ذلك مثل دخول الجند فى الأمير بالتبعية فى قولك : نزل الأمير بموضع كذا ، أى : نزل وتبعه جنوده ، وقيل : هو على تقدير : والفريق الذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، وحمل بعضهم الموصول على الجنس ، والمراد به حينئذ الرسول والمؤمنون ، وأيد هذا الرأى بقراءة ابن مسعود (وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ) :

والمعنى : ومحمد الذى جاء بالقرآن الحق ، وصدق به هو ومن آمن معه – أولئك الموصوفون بما ذُكِرَ – هُمُ المتقون أى : الذين وقوا أنفسهم من الشرك ومن مثوى المشركين .

٣٤ـ (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ) :

هذه الآية بيان لما يستحقه المصدقون المتقون من الكرامة والمنزلة ، أى : لهؤلاء المتقين المصدِّقين لما جاء به الرسول ﷺ ـ لهم ما يشاءون عند ربهم ـ من تكفير السيئات ، والأمن من الفزع الأكبر وسائر أهوال يوم القيامة ، ومن خيرات الجنّة ونعيمها ، وطيب المقام فيها بعد دخولها ، إلى جانب ما نالوه فى الدنيا من مختلف أنواع النعم .

(ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ) أى : ذلك الذى ذكر من حصول ما يشاءون فى الدنيا والآخرة جزاء المحسنين الذين أخلصوا إيمانهم وأحسنوا أعمالهم .

ووضع المحسنين موضع ضميرهم للإشادة بحسن أعمالهم ، وإبراز فضلهم .

٣٥ـ (لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ) :

قول الله تعالى : (لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ . . . الآية) متعلق بمضمون ما قبله .

والمعنى : وعدهم الله ما يشاءونه من دفع المضار ، ونيل المسارّ ، وحسن العاقبة ، ليكفّر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الأعمال التى عملوها وخافوا عقابها[1] وليجزيهم أكرم جزاء ، ويثيبهم أوفى ثواب بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات ، حيث يرفع درجة الحسن من أعمالهم إلى درجة أحسنها ، ويثيبهم عليه ثواب أحسنها .

(أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(بِكَافٍ عَبْدَهُ) : بحافظ ومانع رسوله ممّا يخوّفونه به .

(١) وإذا كفر الله عنهم أسوأ الذى عملوه ، فإنه ـ تعالى ـ يكفر عنهم ما دونه من باب أولى .

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) : يحذرونك ويهددونك بضرر الأصنام .

(عَزِيزٍ) : غالب لايغالَب ، منيع لايمانَع ولاينازَع .

(انتِقَامٍ) : عقوبة .

التفسير

٣٦ـ (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) :

دخول همزة الاستفهام على النفى يقتضى التقرير والإثبات ، وقد جاءت هذه الآية لتؤكد مضمون الآيات السابقة من توعُّد الظالمين الكذَّابين والمكذِّبين ، وصدق الوعد للصادقين والمصدِّقين .

والمعنى : الله ـ تعالى ـ بقوته وقدرته حافظ رسوله ، ومانعه من كل أذى يصيبه ، ومن كل مؤذٍ يريده بسوء .

وقوله تعالى : (وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) تسفيه لما كانَ المشركون يُهدِّدُون به الرسول ﷺ من ضرر أصنامهم . ويتوعدونه به .

روى أنَّهم كانوا يقولون له : إنَّا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، وتصيبك مضرتها لعيبك إيَّاها ، فنزلت الآية . وفى رواية أُخرى قالوا : « لتكُفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منها خبل أو جنون كما قال قوم هود له : (إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) .

وقال قتادة : مضى خالد بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أُحذركها ياخالد فإن لها شدة لايقوم لها شىء ، فعمد خالد إليها فهشم رأسها بالفأس » . وتخويفهم لخالد تخويف لرسول الله ﷺ لأنه الذى وجهه إليها .

ولما كان اتخاذهم الأصنام آلهة ، وتخويفهم بها وهى أحجار لا تدفع ضرًّا ولا تجلب نفعًا لنفسها فضلًا عن أن تنفع أو تضرَّ غيرها ـ لما كان هذا ـ ضلالًا منهم وإضلالًا من الله لهم لإصرارهم على الباطل ، جاء قول الله ـ تعالى ـ : (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

أى : ومن يصرفه الله عن الهداية ، ويعمى قلبه عن اتباع الحق لسوء اختياره ، فهو ضال وما له من هادٍ أبدًا يهديه إلى الخير ، أو يوجهه إلى الحق ونور الإيمان .

٣٧ـ (وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ) أى : ومن يوفّقه الله إلى الهداية ويرشده إلى الحق ونور الإيمان فليس له من مضل يصرفه عن مقصده السّوىّ ، ويدفعه إلى الغواية ومسالك السوء ، إذ لا راد لقضائه ـ تعالى ـ ولا معارض لإرادته ، كما ينطق بذلك قوله ـ تعالى ـ : (أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ) أى : أليس الله بغالب لا يغالب ، منيع لا يمانع ولا ينازع ، ذى انتقام وعقوبة بالغة لمن يتمرد على أمره ونهيه .

وفى هذا تسلية للرسول ، وتثبيت للمؤمنين ، وتأمين لهم على مسالكهم فى الطاعة ، ومسيرتهم فى الاهتداء .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ) : دافعات ضره ورافعاته .

(مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ) : مانعات رحمته وحابسات لها .

(حَسْبِىَ اللهُ) : كافينى فى جميع أمورى .

(مَكَانَتِكُمْ) : حالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنتم فيها .

(يُخْزِيهِ) : يُذِلُّه ويُهينه . (مُقِيمٌ) : دائم لا ينقطع .

التفسير

٣٨ - (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) :

كان المشركون مع إشراكهم ، وعبادتهم الأصنام ، وادعائهم قدرتها وتأثيرها يعترفون أن خالق السموات والأرض هو الله لا يمارون فى ذلك ، ولا يجادلون فيه ، وجاءت هذه الآية توجِّه الرسول ﷺ إلى سؤالهم عن ذلك لينتزع هذا الاعتراف فيكون حجة عليهم تبهتهم وتسفِّه أحلامهم .

والمعنى : ولئن سألت هؤلاء المشركين المعاندين مَنْ خلق السموات والأرض ، وأبدع صنعتهما وأحكم نظامهما ، وسخر فى السماء كواكبها ، وأجرى فى الأرض أنهارها ، وأرسى جبالها ، وأنبت أشجارها ، وبثَّ فيها من كل دابَّة ليقولن : خلقهن الله لوضوح الدليل ، وسنوح السبيل ، وما وجدوا سوى ذلك ردًّا ولا حاروا جوابًا .

قل لهم يا محمد بعد هذا الاعتراف منهم تسفيهًا وتبكيتًا : أفكَّرتم بعد هذا الاعتراف والإقرار فرأيتم أن آلهتكم التى تدعونها من دون الله ، وتزعمون لها التسلُّط والتأثير - إن أرادنى الله بضرٍّ وأذى هل هنَّ قادرات على أن تدفعه عنِّى ، وتحول بينه وبينى ، أو أرادنى برحمة ونعمة هل هنَّ قادرات أن تمنعها منى أو تحبسها عنِّى ، وعبر عن آلهتهم بصيغ المؤنث فى (كَاشِفَاتُ ، وَمُمْسِكَاتُ) لأنها مؤنثات الأسماء وهى اللَّات والعزى ومناة .

روى أنه ﷺ لمَّا سألهم سكتوا فنزل قوله - تعالى - : (قُلْ حَسْبِيَ اللهُ) أى : قل لهم أيها الصادق الأمين : حسبى الله وكافينى فى جميع أمورى من إصابة الخير ، ودفع الشر ، عليه وحده لا على أحد غيره يتوكل المتوكلون فى كل أمورهم ، ويعتمدون على حوله وقوته فى جميع شئونهم ، لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته - تعالى -

٣٩ ، ٤٠ - (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) :

أى : قل لهم أيها الصادق الأمين بعد أن سجلوا على أنفسهم باعترافهم بقدرة الله - تعالى - السفه والعناد - قل لهم - : اعملوا على مكانتكم وحالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنت منكم ، إنى عامل على منهجى وطريقى التى لا تزال تزداد قوة تروع أمنكم ، بنصر الله لى وتأييده إياى ، إحقاقًا للحق وإعلاء لكلمته ، وإذا كنتم الآن من هذا فى شك فسوف تعلمون فى مستقبل الأيام وعلى امتداد الزمن ، وتتابع الأحداث من يأتيه عذاب يخزيه ويذله فى الدنيا ويهينه ، ويحلُّ عليه فى الآخرة عذابٌ مقيم دائم لا ينقطع ، وقد صدق فيهم عذاب الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر ، والذل والهوان يوم فتح مكة ، وينتظرهم فى الآخرة عذابٌ أفظع ، ونكال أبشع لمن بقى منهم على كفره .

(إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(بِالْحَقِّ) : متلبسًا بالصدق .

(بِوَكِيلٍ) : مسلّط تجبرهم على الهداية .

التفسير

٤١ - (إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

تتجه هذه الآية إلى تقرير أمر الرسالة ، وإنزال القرآن الكريم ، وما يحتويه من

إرشادات وعظات ، يُسَلِّى بها نبيه ﷺ ويهوِّن عليه عناد قومه ومعارضتهم فيقول - الله تعالى مخاطبًا نبيّه ﷺ : (إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ) أى : إنا أنزلنا عليك أيها الرســول العظيم القرآن الكريم بالحق والصدق لأجل الناس فإنه مناط مصالحهم فى المعاش وفى المعاد ، وإن مهمتك فيه إبلاغه للناس بأمانة وصدق ، كما أنزلناه إليك ليهتدى به من يريد الله له الهداية ومجانبة الشرك والضلال ، فمن أجابك إليه واهتدى به ، وعمل بما فيه فلنفسه ؛ لأن نفعه عائد عليها ، وحسن عاقبته لها ، ومن أعرض ، وضل عن الانتفاع بهديه ، ولم يعمل بما فيه ، فإنما ضلاله على نفسه ؛ لأن وبال ذلك ، وسوء عاقبته حائق بها ، وما أنت على الناس بوكيل ولا مسلَّط تجبرهم على الإيمان والتصديق ، وتلجئهم إلى الهداية والتوفيق ، فإنك لا تهدى من أحببتْ ولكن الله يهدى من يشاء .

(ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ) أى : يستوفيها ويسيطر عليها .

(فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ) : يحفظها ولا يردُّها إلى البدن .

(وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ) : يرد النفس النائمة إلى البدن عند اليقظة .

(أَجَلٍ مُّسَمًّى) أى : وقت سمّاه الله ينتهى به عمرها .

(لَآيَاتٍ) : لَعِظَاتٍ بالغات .

التفسير

٤٢ - (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « إن فى ابن آدم نفسا وروحًا ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس هى التى بها العقل والتمييز ، والروح هى التى بها التَّنَفُّس ، والتَّحرك ، فيتوفَّيان معًا عند الموت ، وتتوفى النفس وحدها عند النوم » .

هكذا روى عن ابن عباس ، ولكن الظاهر أنَّ هذه الآية الكريمة تمثل صورتين عجيبتين من صور قدرة الله - تعالى - على الخلائق ، صورة تحدث لكل حى مرَّة واحدة ولا تتكرر ، وهى الموت عند انتهاء الأجل ، وصورة تتكرر مع الحياة وتلازمها ، وهى النوم فى جميع حالاته وأوقاته : فهذا هو مضمون قوله - تعالى - : (اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ... الآية).

والمعنى : الله يستوفى الأرواح ويسيطر عليها حين موتها وحين نومها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويقطع صلتها بالبدن ، ويرد النفس الأُخرى النائمة التى منعها عن التصرف وقت نومها ولم يحن أجلها - يَرُدُّ تصرفها إلى بدنها فتحصل اليقظة بسبب ذلك ، ويجرى ذلك عليها إلى أجل مسمى هو انتهاء عمرها .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أى: إن فى ذلك التصرف العجيب ، والنمط الغريب الذى يجرى على نفوس الخلائق ، ويتكرر فى حاليه بينهم ، وتحت أبصارهم ، وأسماعهم ، لآيات بالغات ، وشواهد بيِّنات دالَّات على بليغ قدرة الله - تعالى - ودقة حكمه ، لقوم يتفكرون فى كيفية تعلق النفس بالأبدان ، وتوفِّيها عنها تارة بالكلية عند الموت ، واستبقائها عند الله بين السعادة والشقاوة ، وتوفِّيها تارة أُخرى توفيًا ظاهرًا عند النوم ، وإرسالها إلى البدن ليعود إلى نشاطه ، حتى يحين أجلها .

٤٣ ، ٤٤ - (أَمِ اتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ • قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ، لَّهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى : بل أتخذوا : فأمْ هنا منقطعة تتضمن معنى بل وهمزة الاستفهام .

والمعنى : بل أتَّخذ المشركون آلهة من دون الله ، ومن غير إذن منه شفعاء تشفع عنده - تعالى - لهم فى أمورهم الدنيوية والأخروية .

قل لهم أيها الرسول (أولًا) تسفيهًا وتبكيتًا : أيستقيم فى تفكيركم ، ويصح فى عقولكم أن تتخذوا أصنامكم شفعاء يشفعون لكم عند الله ، وترجون عندهم ذلك ، ولو كانوا لا يملكون شيئًا أصلًا ، فضلًا عن أن يملكوا الشفاعة التى هى المنزلة العليا ، والغاية القصوى ، التى لا يرقى إليها إلَّا الأنبياء والمرتضون . وكذلك لا يعقلون أمرًا من الأمور ، ولا يرجو أحد منهم الشفاعة إلَّا المغرقون فى الجهل والضلال .

وقل لهم (ثانيًا) إثباتًا للحق وتأكيدًا : لله وحده الشفاعة جميعًا بكل صورها ، وكافة أغراضها هو الذى يملكها ويملك الإذن بها إذا كان الشفيع مرتضى مأذونًا له ، وأصنامكم تفقد أساسًا كل مقوماتها فضلًا عن الارتضاء لها والإذن لها .

وقوله - تعالى - : (لَّهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) تأكيد لمضمون ما قبله وتقرير له .

والمعنى : لله وحده ملك السموات والأرض وملك ما بث فيهما من دابة ، ومن حق المالك ألَّا يتكلم أحد فى أمر من أمور ملكه إلَّا بإذنه ، ثم إليه وحده وليس لغيره استقلالًا أو اشتراكًا ترجعون يوم القيامة ، فتعلمون الأمور على حقيقتها ، وتتبينون ضلالكم رجهلكم باتخاذكم هذه الأصنام آلهة ، ورجائكم فى نفعها وشفاعتها فتندمون ، ولات ساعة مندم .

(وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ) : دون ذكر الأصنام .

(اشْمَأَزَّتْ) : انقبضت ونفرت .

(مِن دُونِهِ) : من دون الله .

(يَسْتَبْشِرُونَ) : يفرحون ويسرون .

(فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق .

(عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : عالم السر والعلن .

(لَافْتَدَوْا بِهِ) : لقدموه فداء لهم من العذاب .

(بَدَا) : ظهر .

(يَحْتَسِبُونَ) : يدخل فى تقديرهم وحسابهم .

التفسير

٤٥ - (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) :

تصور هذه الآية تصرفًا من تصرفات هؤلاء المشركين ناشئًا عن تماديهم فى الشرك ، وإيغالهم فى تأليه أصنامهم ، وتمثل حالين من أحوالهم القبيحة تنعكسان على وجوههم انقباضًا وعبوسًا إذا سمعوا ذكر الله ، وبشرًا وفرحًا إذا سمعوا ذكر آلهتهم ، وذلك من إيغالهم فى الجهل وانحطاطهم فى سفاهة العقل وسوء التفكير .

والمعنى : قد كان من حالهم فى الدنيا أنه إذا ذكر الله وحده دون ذكر الأصنام انقبضت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين ، وظهر ذلك على وجوههم إنكارًا واشمئزازا ، وإذا ذكر الذين من دونه من أصنامهم وآلهتهم فرادى أو مع ذكر الله - تعالى - أسرع الفرح والسرور إليهم ، وظهر البشر على وجوههم ، لفرط افتتانهم بآلهتهم ، وتعصبهم لها ، ونسيان حق الله - تعالى - .

٤٦ - (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

هذا أمر وتوجيه من الله لرسوله بالدعاء والالتجاء إلى الله - تعالى - لما قاساه فى أمر دعوة هؤلاء المشركين ، ولما ناله من شدة شكيمتهم فى المكابرة والعناد ، فإنه - تعالى - هو المبدع للسموات والأرض بجملتها ، والعالم بالأحوال برمتها ، والفاصل بين المحقين والمبطلين ، وفيه تعليم للعباد أن يلجئوا إلى الله عند الشدائد .

والمعنى : قل أيها الرسول : اللهم يا فاطر السموات والأرض ومبدع صنعتهما على غير مثال سبق ، يا عالم كل سر وعلانية ، وكل غائب وشاهد ، لا يخفى عليك شأن من الشئون أنت وحدك تحكم بين عبادك ، وتقضى بينهم فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا قضاء يحسم كل خلاف ، ويخضع له كل مكابر ، ويستسلم له كل عات متجبر ، فيبهت بذلك كل ظالم ، وينتصف كل مظلوم .

هذا ، وأصل الفطر : ابتداء الخلق وابتداعه ، قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : « كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا (فطرتها) أى : ابتدأتها » .

٤٧ — (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوٓءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ) :

ولو كان للذين ظلموا أنفسهم بالشرك ، والإسراف فى العناد والمعارضة — لو كان لهم — مافى الأرض جميعًا من الخيرات ، والكنوز والأموال ومثله معه ، لهان عليهم أن يبذلوه افتداء لهم وخلاصًا من سوء العذاب يوم القيامة ، لهول مايشاهدون ، وفظاعة — مايلاقون — وهيهات — وفى هذا قمة الوعيد ، وغاية الإقناط لهم من الخلاص والنجاة ما داموا به كافرين .

وفى قوله — تعالى — : (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ) : ارتفاع بالوعيد إلى أقصى مايتمثله متمثل ، أو يدخل تحت حذر وتقدير . أى : وظهر لهم من الله من ضروب العذاب ، وصور العقاب والانتقام ، مالم يخطر على بالهم ، ولم يدخل فى تقديرهم وحسابهم .

وهذا الوعيد غاية فى التخويف والتحذير يقابلها فى الترغيب والتبشير قول الله — تعالى — : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] .

٤٨ — (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

تمضى الآيات فى ترديد الوعيد وتُبْدِئُ فيه وتعيد ، لتقطع الحجة على كل مكابر ، وتعقد لسان كل عنيد ، فيقول الله — تعالى — : (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ) أى : وظهر — للمشركين يوم القيامة حين عرضت عليهم صحائف أعمالهم ، وأخذوا كتبهم بشمائلهم ، وقالوا وفى عيونهم عَبرة ، وقلوبهم فى غمرة : « مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ... الآية »[2] — بَدَا لهم يومئذ سيئات ما عملوا فى دنياهم

(١) سورة السجدة — الآية : ١٧

(٢) سورة الكهف من الآية : ٤٩

وما اكتسبوا من فرطات وآثام ، (وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى : نزل وأحاط بهم من صنوف العذاب وضروب العقاب ما كانوا به يستهزئون ويسخرون عند توعدهم به فى الدنيا ، ويستعجلون نزوله سخرية وإنكارًا ، وعتوًّا واستكبارًا ، « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1] .

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢))

المفردات :

(مَسَّ) : أصاب وتمكّن .

(خَوَّلْنَاهُ) : أعطيناه وملكناه تفضلًا .

(عَلَىٰ عِلْمٍ) : على معرفة بوجوه الكسب ، أو على استحقاق وجدارة بما عندى من العلم.

(فِتْنَةٌ) : محنة وابتلاء .

(بِمُعْجِزِينَ) : بغائبين من العذاب ناجين منه .

---

(١) سورة النحل من الآية : ٣٣

(يَبْسُطُ) : يوسع ويزيد .

(يَقْدِرُ) : يضيِّق وينقص .

التفسير

٤٩ - (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

تحكى هذه الآية لونًا من سلوك الإنسان الذى لم يتمكن من قلبه دين يهديه ، ولم يتوفَّر فيه عقل يرشده ، ولا تحكمه قيم أو تقيده ، فتضطرب أحواله ، وتختلف نزعاته ، وينعكس ذلك على سلوكه .

ويتمثل سلوكه تارة فى عقيدته ، وتارة فى أحواله وتصرفاته ، فإذا أصابته ضراء أو نزل به مكروب عرف الله ولجأ إليه بالدعاء ، ثم إذا كشف الله ضره ، ورفع كربه نسى ما كان يدعو إليه ، وعاد لما كان عليه من الزعم بأنه أوتيه على علم .

وهذه الآية التى بين أيدينا تحكى كفر الإنسان بالنعمة طغيانًا واستعلاءً .

والمعنى : (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا) أى : إذا أصـــاب الإنسان ضر فى مال أو أهل أو عافية أو غير ذلك من الكوارث - إذا أصابه شىء من ذلك - دعانا وحدنا ولجأ إلينا ولم يدعُ لكشف ضره ، ودفع شره سوانا ، ملحًّا فى الدعاء ، مستمرًّا فى الرجاء ، ثم إذا تجلَّينا عليه بالإجابة ، وأعطيناه سؤله ، وملكناه وخوَّلناه منَّا نعمة تعاظم وتعالى ، وادعى لنفسه القدرة والجدارة وقال : إنما أوتيت ما أوتيته على علم عندى بوجوه الكسب ومهارة فى التصرف واستحقاق للنعمة ، ناسيًا فضل الله عليه ، وتضرعه إليه ، ولم تكن مقالته هذه عن حق أو عقل (بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ) وابتلاء ومحنة ، وكفر بالنعمة ، ولكن هؤلاء المذكورين لا يعلمون أن ما يجرى عليهم من النعم اختبار من الله يتمحص به الشاكر والكافر ، والحامد والجاحد ، أو لا يعلمون سبل الإخلاص ، ووسائل النجاة .....

وفى قوله تعالى : (لَا يَعْلَمُونَ) بصيغة الجمع ، مع الإفراد قبله - فيه - دلالة على أن المراد بالإنسان الجنس ، وأن أكثره يسلك هذا السبيل .

وصدرت هذه الآية بالفاء دون الواو لترتبها على حال سابقة من مناقضتهم، وتعكيسهم فى التسبب حيث يشمئزون إذا ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر آلهتهم مع الله أو فرادى فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره وضاقوا باسمه دون من استبشروا بذكره وهشُّوا له.

٥٠ - (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

أى : قد قال هذه المقالة وهى : (إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) الذين تقدموهم، وسبقوا أيامهم وأزمانهم، فلم تكن مقالتهم بدعًا، ولا كفرهم حدثًا - قال هذه المقالة : قارون موسى الذى آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولى القوة، فلما طلب منه أن يبتغى الدار الآخرة مع دنياه اعترافًا للمنعم، وشكرًا للنعمة « قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ »[1]

وقالها فرعون تألُّهًا وتجبرًا : « أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ »[2] وتطاول على مقام النبوَّة فقال فى شأن موسى - عليه السلام - : « أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ »[3].

وقال النمرود فى محاجة إبراهيم - عليه السلام - : « أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ »[4]. وهكذا كانت النعم على طول الزمن سبيلًا للإنسان إلى التجبر والطغيان. وصدق الله العظيم إذ يقول : « كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ »[5]، وقوله تعالى : (فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) معناه : فما دفع عنهم ولا أفادهم ما كانوا يجمعونه فى الدنيا، ويحرصون على كسبه، ما أغنى عنهم ذلك ولا دفع ما نزل بهم من العذاب، مما ينبىء عنه قوله تعالى :

٥١ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ) :

والمعنى : فأصاب هؤلاء جزاء سيئات ما كسبوه، فأغرق الله فرعون وجنوده، وخسف بقارون وبداره الأرض، والذين أفرطوا فى الظلم من هؤلاء المشركين، وأسرفوا فى العناد

---

(١) سورة القصص من الآية : ٧٨
(٢ ، ٣) سورة الزخرف الآيتان : ٥١ ، ٥٢
(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٥٨
(٥) سورة العلق الآيتان : ٦ ، ٧

سيصيبهم فى الآخرة جزاء سيئاتهم ، وعقاب ظلمهم وإشراكهم ، فوق ما أصابهم أشد إصابة فى الدنيا من القحط والقتل والذل والهوان ، فقد قحطوا عدة سنين ، ولقوا ما لقوا من القتل والأسر يوم بدر ، ومن الذل والهوان يوم فتح مكة ، حيث دانوا للإسلام ، وتحطمت كبرياؤهم .

(وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ) أى : بفائتين ولا ناجين من العذاب فى الآخرة كما وقع بهم فى الدنيا .

٥٢ ـ (أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

المعنى : أغفل هؤلاء وأولئك من المشركين والذين سبقوهم ممن أبطرتهم النعم ، وأفسدهم الترف والغنى ، فراحوا يتطاولون ، ويتكاثرون ـ أغفلوا ـ ولم يعلموا أن المنعم على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم هو الله ـ تعالى ـ وأنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، ويضيق الرزق على من يشاء منهم ، لحكمة لا يعلمها إلا هو ـ سبحانه وتعالى ـ .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أى : إن فى ذلك الذى ذكر لآيات بينات وشواهد واضحات لقوم يستعدون للإيمان بالتفكر فى حكمته وبديع صنعته ، وكمال قدرته ، فيهتدون بهديها ، ويسلكون سبيل الخلاص والنجاة ، وما أروع معنى ، ولا أبدع نسقًا أن ينزل بعد هذه الآيات قول الله تعالى :

(قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ . . . الآية) .

* (قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) : تجاوزوا الحد فى المعاصى فجنوا عليها .

(لَا تَقْنَطُوا۟) : لا تيئسوا .

(وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ) : ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة .

(وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ) : أخلصوا له العمل والعبادة .

(أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم) : القرآن .

(بَغْتَةً) : فجأة .

(يَا حَسْرَتَىٰ) : يا ندامتى ويا حزنى .

(فَرَّطتُ) : ضيعت وقصرت .

(جَنبِ اللهِ) : حقه .

(السَّاخِرِينَ) : المستهزئين بدين الله .

(كَرَّةً) : رجعة إلى الدنيا .

التفسير

٥٣ - (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

ذكر القرآن فى الآيات السابقة ما أعد الله للظالمين والمشركين من العذاب الأليم ، وجاءت هذه الآية للمؤمنين المفرطين فى المعاصى لبعث الأمل فى نفوسهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله .

والمراد بمغفرة الذنوب : التجاوز عنها وعدم المؤاخذة بها ، وهو المراد بسترها ، وقيل : المراد بها محوها من الصحائف ، كأن لم تكن فضلًا منه - تعالى - وكرمًا .

واستظهر بعض المفسرين إطلاق المغفرة للتائبين وغيرهم ، بدليل قوله -تعالى- : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ »[1] فهو ظاهر فى الإطلاق فيما عدا الشرك ، ويشهد للإطلاق أمور :

الأول : نداؤهم بعنوان العبودية فإنها تقتضى المذلة وهى أنسب بحال العاصى إذا لم يتب ، واقتضاؤها للرحمة ظاهر .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٤٨

الثانى : الاختصاص الذى تُشعر به الإضافة إلى ضميره - تعالى - فإن السيد من شأنه أن يرحم عبده ويشفق عليه .

الثالث : إضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوى على جميع معانى الأسماء على طريق الالتفات فإن ذلك ظاهر فى سعتها ، وهو ظاهر فى شمولها التائب وغيره .

الرابع : وضع الاسم الجليل فى موضع الضمير لإشعاره بأن المغفرة من مقتضيات ذاته لا لشىء آخر من توبة وغيرها .

الخامس : تعريف الذنوب فإنه فى مقام التمدح ظاهر فى الاستغراق فشمل الذنب الذى تعقبه التوبة والذى لا تعقبه التوبة .

السادس : التأكيد بلفظ (جميعًا) .

السابع : التعبير بالغفور فإنه صيغة مبالغة وهى إن كانت باعتبار الكم شملت المغفرة جميع الذنوب ، أو باعتبار الكيف شملت الكبائر بدون توبة .

الثامن : حذف معمول الغفور فإن حذف المعمول يفيد العموم ، إلى غير ذلك مما قالوه .

وقال آخرون : إنها وردت فى غير موضع من القرآن الكريم مُقَيَّدَة بالتوبة ، فإطلاقها هنا يحمل على التقييد بها ، لأن المطلق يحمل على المقيد ما لم ينسخ ، ولا نسخ فى عقاب المؤمن المذنب ، وأيدوا ذلك بقوله تعالى : (وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ) فإنه عطف على (لَا تَقْنَطُواْ) كأنه قيل : لا تقنطوا من رحمة الله فتظنوا أنه لا يقبل توبتكم وأنيبوا إليه - تعالى - وأخلصوا له - عز وجل - .

وقال بعض أجلة المحققين : إن قوله : (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ) خطاب للكافرين والعاصين وإن كان المقصود الأول : الكفار لمكان القرب وسبب النزول .

فقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أنه مَن عَبَد الأوثانَ ، ودعا مع الله إلهًا آخر ، وقتل النَّفس التى حرم الله ، لم يُغْفَرْ له ، فكيف نُهَاجر ونُسْلِم ؟ وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك ؟ فأنزل الله - تعالى - (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ . . . الآية) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: نزلت الآيات فى عياش ابن أبى ربيعة، والوليد بن الوليد، ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا، فافتتنوا[1] فكنا نقول: لا يقبل الله - تعالى - من هؤلاء صرفًا ولا عدلًا أبدًا: أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوه!! فنزلت هذه الآيات، وكان عمر - رضى الله عنه - كاتبًا فكتبها بيده، ثم كتب بها إلى عياش، وإلى الوليد، وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآيات الثلاث: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ ﴾ إلى ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ بالمدينة فى وحشى قاتل حمزة؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه.

وقد فرح النبى ﷺ بنزول هذه الآية، أخرج الإمام أحمد فى مسنده وابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان وغيرهم عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ إلى آخر الآية».

وأصل الإسراف: الإفراط فى صرف المال، ثم استعمل فيما ذكر مجازًا، وقال الراغب: هو تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك فى الإنفاق أشهر، وهو ظاهر فى أنه حقيقة فيما ذكرنا.

٥٤ - ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾:

حث الله - تبارك وتعالى - عباده على المسارعة إلى التوبة فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ إلى آخر الآية - أى: وارجعوا أيها المسرفون على أنفسهم إلى ربكم ومالك أمركم بالإعراض عن معاصيه، والندم عليها، وأسلموا له بالإخلاص فى طاعته، والامتثال لأمره، والخضوع له بالعبادة، والإقرار بوحدانيته، قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا ينصركم أحد من الله ويدفع عنكم عذابه.

ولقد فرق بعض العلماء بين الإنابة والتوبة: بأن التائب قد يرجع من خوف العقوبة، والمنيب يرجع استحياء لكرمه - تعالى - وذكر الإخلاص بعد الإنابة ليعلم العبد أن نجاته بفضل الإخلاص لله فى توبته.

---

(١) أى: رجعوا عن الإسلام.

٥٥ - (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) :

أى : واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن ، أو العزائم دون الرخص ، وقال ابن زيد : يعنى المحكمات وكِلُوا المتشابه إلى علمه .

ولعل الأحسن ما هو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة من قبل أن يجيئكم العذاب فجأة وعلى غير استعداد ، وأنتم لا تشعرون ،أى :لا تعلمون أصلًا بمجيئه فتتداركون ما يدفعه عنكم .

٥٦ - (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) :

أى : أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم كراهة أن تقول نفس آثمة مذنبة : يا ندامتى ويا حسرتى وأسفى على ما ضيعت وقصرت فى جنب الله أى : فى حق الله - تعالى - حال أن كنت من المستهزئين بكتابه ودينه ورسله .

قال الراغب : أصل الجَنب الجارحة ، ثم استعير للناحية والجهة - والمراد هنا : الجهة مجازًا ، والكلام على تقدير مضاف أى : فى جنب طاعة الله أو فى حقه - تعالى - أى : ما يحق له - سبحانه - ويلزم وهو طاعته - عز وجل - والتفريط فى جهة الطاعة كناية عن التفريط فى الطاعة نفسها ؛ لأن من ضيع جهة ضيع ما فيها بطريق الأولى .

وتنكير (نفس) فى قوله تعالى : (أَن تَقُولَ نَفْسٌ) للتكثير بقرينة المقام ، ويجوز أن يكون تنكيرها للتبعيض ؛ لأن القائل بعض الأنفس ، واستظهره أبو حيان .

٥٧ - (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) :

أو تقول تلك النفس المذنبة : لو أن الله هدانى بالإرشاد والدلائل المؤصلة ، لكنت من الذين وقوا أنفسهم من عذاب الله وعقابه بالإيمان والعمل الصالح ، وفسر أبو حيان الهداية بخلق الاهتداء .

٥٨ - (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) :

أو تقول تلك النفس المذنبة حين تشاهد العذاب وتعاين أهواله وشدائده : ليت لى رجعة إلى الحياة الدنيا فأكون من المحسنين فى العقيدة والعمل ، المؤمنين العاملين بما نزل ، وهكذا

يتمنون فى الآخرة الرجوع إلى الدنيا مرةً ثانية ليحسنوا ، ولقد كانوا فيها فما أحسنوا ، بل أساءوا إلى خالقهم بعبادة غيره وعدم طاعته . ولذا جاء قوله – تعالى – :

٥٩ – (بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

جوابًا من الله – عز وجل – لمـا تضمنه قول القائل : (لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي) من نفى أن يكون الله قد هداه – أى : بلى أيها النادم على ما كان منه فى الحياة الدنيا المتمنى الرجوع إليها لتكون من المحسنين فيها – بلى – قد جاءتك آياتى وتعاليمى على لسان رسلى ، وقامت حججى عليك ، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها والجاحدين لها ، وآثرت الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى .

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ) : وصفوه بما لا يليق به .

(وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) : حقيقة أو لمـا يعلوها من الكآبة .

(مَثْوًى) : مأوى ومقامًا .

(بِمَفَازَتِهِمْ) : بفوزهم وظفرهم ببغيتهم .

التفسير

٦٠ – (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) :

المراد بالذين كذبوا على الله : كل من افترى على الله ووصفه بما لا يليق به – سبحانه –

نفيًا أو إثباتًا ، بأن نزهه - سبحانه - عمّا يجب أن يضاف إليه ، أو نسب إليه مايجب تنزيهه - سبحانه وتعالى - عنه (وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) بما ينالهم من الشدة التى تغبر ألوانهم حقيقة ، ويجوز أن يكون ذلك من باب المجاز لمـا يعلو وجوههم من الكآبة ، ويلحقها من الهم والحزن ، ويظهر عليها من آثار الجهل بالله - عز وجل - فى هذا اليوم العصيب .

والظاهر أن الرؤية بصرية ؛ لأن ذلك أبلغ فى التشهير بهم وبيان قبح حالهم ، والخطاب للرسول ، أو لكل من تتأتى منه الرؤية (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) أى : أن فى جهنم مقرًّا ومقامًا للمتكبرين الذين جاءتهم آيات الله فكذبوا بها واستكبروا عن قبولها ، والانقياد لها .

٦١ - (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

أى : وينجى الله الذين جعلوا لهم وقاية من عذاب الله بالتوحيد وفعل الطاعات - ينجيهم بمفازتهم من العذاب لاختيارهم الهدى على الضلال (لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ) أى : لا ينالهم من أذى جهنم شىء ، وهذا ومابعده بيان للمفازة (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أى : ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع ، ناجون من كل شر ، نائلون كل خير ، أو المعنى : ولا هم يحزنون على مافاتهم من متاع الدنيا أو ذهاب نعيم كانوا يؤملونه فى الآخرة .

والمفازة مَفْعَلَةٌ من الفوز مصدر ميمى ، أو اسم مكان من فاز به :ظفر ،أو من فاز منه :نجا .

وعن النبى ﷺ فى تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الله مع كل امرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح ، فكلما كان رعب أو خوف قال له : لَا تُرَعْ فما أنت بالمراد به ، ولا أنت بالمعنى به ، فإذا كثر ذلك عليه قال : فما أحسنك فمن أنت ؟ فيقول : أما تعرفنى ؟ أنا عملك الصالح حملتنى على ثقلى فوالله لأحملنك ولأدفعنَّ عنك فهى التى قال الله : (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) » ذكره القرطبى .

(ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : مفاتيحها ، وهو كناية عن ملكه لهما وتصرفه فيهما .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ) : القرآن أو حجج الله وبراهينه .

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ) أى : على سبيل الفرض .

(لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) : ليبطلن وليفسدن .

التفسير

٦٢ - (اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ) :

الله خالق كل شىء من خير وشر وإيمان وكفر ، لكن لا بالجبر ، بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما . فالآية رادة على المعتزلة[1] ردًّا ظاهرًا (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ) يتولى التصرف

---

(١) فإنهم يقولون : إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية بقوة أودعها الله فيه ، مستندين إلى نحو قوله تعالى : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) ، وقوله : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله) وقوله : (كل امرىء بما كسب رهين) ولذا يكون الثواب والعقاب على عمل العبد الذى كسبه باختياره ، وخلقه بإرادته مستعملا القوة الربانية التى أودعها الله فيه صالحة للخير والشر ، فأحسن استعمالها فى الخير وأساء استعمالها فى الشر .

فيهما كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة ، ولك أن تقول : إنه - تعالى - يتولى حفظ كل شيء خلقه ، فيكون ذلك إشارة إلى احتياج الأشياء إليه - تعالى - فى بقائها ، كما أنها محتاجة إليه - عز وجل - فى وجودها ؛ فهو ربها ومليكها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره ، وقهره وكلاءته .

٦٣ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى : مفاتيحها كما قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة وغيرهم و (مَقَالِيدُ) قيل : جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل : جمع مقليد أو مقلاد ، أى : مفتاح .

ومقاليد السموات والأرض مجاز عن كونه مالك أمرهما ومتصرفًا فيهما لعلاقة اللزوم ، أو كناية عن القدرة والحفظ ، قال البيضاوى : كناية عن قدرته - تعالى - وحفظه لها ، وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والقهر لمكان اللام والتقديم ، ولم يقل : ويهلك الذين كفروا بخسرانهم كما قال سبحانه : (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ...) الآية للإشعار بأن العمدة فى فوز المؤمنين فضله - تعالى - فلذا جعل نجاتهم مسندة إليه - تعالى - حادثة له يوم القيامة غير ثابتة قبل ذلك بالاستحقاق والأعمال ، بخلاف هلاك الكفرة فإنهم قدموه لأنفسهم بما اتصفوا به من الكفر والضلال . ولذا لم يسند له - تعالى - على طريقة القرآن من إسناد الخير لله ؛ لأنه أصل كل خير ، ومنبع كل فضل ، وإسناد الشر للناس بما كسبت أيديهم .

٦٤ - (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) :

أى : أبعد هذه الآيات الواضحات القاضية بعبادته - تعالى - وحده ، تأمرونى أن أعبد غير الله - تعالى - فقد قالوا له ﷺ : استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك ، وذلك لفرط جهالتهم ، ولذا نودوا بعنوان الجهل .

٦٥ـ (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) :

ولقد أُوحِيَ إليك وإلى الذين من قبْلك من الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لئن أشركت بالله شيئًا على سبيل الفرض ليحبطن عملك ويبطلن ويفسدن ولتكونن من الخاسرين.

وقال : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ) على التوحيد مع أن الموحى إليهم جماعة ؛ لأنه على تأويل أوحى إليك وإلى كل واحد من الرسل قبلك (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . .) الآية .

وقوله تعالى : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) عبر بهذا الكلام مع علمه ـ تعالى ـ بأن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ؛ لأنه كلام على سبيل الفرض لبيان شناعة الشرك بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره فكيف بمن عداه .

ومذهب الشافعي : أن الردة لا تحبط العمل السابق عليها ما لم يستمر المرتد على الكفر إلى الموت ، وترك التقييد هنا اعتمادًا على التصريح به فى قوله تعالى : « وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »[1] . ويكون ذلك من حمل المطلق على المقيد (وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) بسبب حبوط العمل .

٦٦ـ (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) :

رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم كأنه قال : لا تعبد ما أمروك بعبادته ، بل إن كنت فاعلًا فاعبد الله وأخلص له العبادة وحده لا شريك له ، وكن من الشاكرين لإنعام الله عليك الذى يضيق عنه نطاق الحصر ، ومنه أن جعلك سيد ولد آدم ، وبما أن النبى ﷺ إمام أمته ، فأمره بعبادة الله وشكره ـ تعالى ـ وحده أمر لأمته تبعًا له .

(١) سورة البقرة من الآية رقم : ٢١٧

(وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) : وَمَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ حِين أَشْرَكُوا بِهِ غَيْرَهُ .

(قَبْضَتُهُ) القَبضَةُ : المرَّةُ من القبض ، وتطلق على المقدار المقبوض ، كالقُبْضَةِ بضم القاف أى : أنها ملكه وفى مقدوره .

(مَطْوِيَّاتٌ) : مجموعات .

(بِيَمِينِهِ) : بقدرته .

التفسير

٦٧ - (وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

(وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أى : ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه والقادر على كل شىء ، والمالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قبضته وقدرته .

ويقول الزمخشرى فى كتابه (الكشاف) فى معنى هذه الآية وهو يمثل رأى الخلف : « لما كان العظيم إذا عرفه الإنسان حق معرفته ، وقدره فى نفسه حق قدره ، وعظمه حق تعظيمه ، قيل : (وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) على معنى وما عظموه حق تعظيمه ، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل والتمثيل فقال : (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) والغرض من هذا الكلام إذا

أخذته كما هو بجملته وموضوعه تصويرعظمته لا غير ، وكذلك حكم ما يروى مثل ذلك من الأحاديث . . ثم قال : والخلاصة هى الدلالة على القوة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التى تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكنهها الأوهام هينة عليه هوانًا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلّا إجراء العبادة فى مثل هذه الطريقة من التخييل والتمثيل ، ولا ترى بابًا فى علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله – تعالى – فى القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء : (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ) المراد بالأرض : الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان قوله : (جميعًا) ، وقوله : (والسموات) ، ولأن الموضع موضع تفخيم وتعظيم فهو مقتض للمبالغة .

(قَبْضَتُهُ)القبضة : المرة من القبض ، والقبضة–بالضم–المقدار المقبوض بالكف ، ويقال – أيضًا – : أعطنى قَبْضَةً من كذا ، يريد معنى (القُبْضَة) تسمية بالمصدر ، وكلا المعنيين محتمل ، والمعنى : أن الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلّا قَبْضَةً واحدة من قَبَضَاته كأنه يقبضها قَبْضَةً بكف واحدة[1] ، وإذا أُريد معنى القُبْضَة – بضم القاف – فظاهر ؛ لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة ، (وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ) من الطى الذى هو ضد النشر ، أى : مجموعات . كما قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِى السَّمَآءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » وعَادَة طاوى السجل أن يطوى بيمينه ، والمراد من قبضته ملكه بلا ممانع ولا منازع ، وبيمينه بقدرته (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أى : ما أبرأ مَنْ هذه قدرتُه وعظمتُه وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء ، فسبحان للتعجب . اهـ كشاف بتصرف (ج ٣ ص ٣٥٥، ٣٥٦) .

وقال الآلوسى فى قوله تعالى : (وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أصل القدر : اختصاص الشىء بعِظَمٍ أو صِغَرٍ أو مساواة ، قيل المعنى : وما وصفوه تعالى حق صفاته ، بل وصفوه بأنه خلق الخلق عبثًا ، وأنه لا يبعث الخلق ؛ لأنه لا يقدر على ذلك ، وعليه يكون للتمهيد لأمر النفخ فى الصُّور الآتى ، وضمير الجمع فى (وَمَا قَدَرُواْ) لكفار قريش كما روى عن ابن عباس ، وقيل : الضمير لليهود فقد تكلموا فى صفات الله وجلاله فألحدوا وجسّموا وجاءوا بكل تخليط فنزلت الآية ردًّا عليهم .

---

(١) هذا إذا أريد بلفظ قبضة – بفتح القاف – المعنى المصدرى .

(وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(الصُّور) لغة : البوق ، والمراد به القَرْن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وهو من عالم الغيب لايعلم كنهه إلّا الله .

(فَصَعِقَ) : مات .

(أَشْرَقَتِ الأَرْضُ) : أضاءت .

(بِنُورِ رَبِّهَا) : نوره سبحانه حين يتجلى لفصل القضاء ، وقيل : بما يقيمه فى الأرض من الحق والعدل .

(الْكِتَابُ) : صحائف الأعمال .

(بِالْحَقِّ) : بالعدل .

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ) أى : أعطيت جزاء ذلك كاملًا .

التفسير

٦٨ - (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) :

يقول الله - تبارك وتعالى - مخبرًا عن شدائد يوم القيامة ومايكون فيه من الآيات

العظيمة والأهوال الجسيمة (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ)وهي نفخة الصعق ، والمشهور أن النافخ فيه ملك واحد ، وأنه إسرافيل ، بل حكى القرطبي الإجماع على ذلك ، وهذه النفخة هي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، قال الإمام الآلوسي : لم يرد في تعيين المستثنى - إلا من شاء الله - خبر صحيح . انتهى .

ثم يقبض الله أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولًا وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء ، ويقول : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ؟ [1] ثم يجيب نفسه فيقول : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [2] أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور نفخة أخرى ، وهي نفخة البعث ، قال تعالى :(ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) أي : فإذا هم قائمون من قبورهم أحياء بعد أن كانوا عظامًا ورفاتًا ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، وقيل : ينظرون ، أي : ينتظرون ما يؤمرون به أو ينظرون ماذا يفعل بهم . قال - جل شأنه - : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ » [3] .

٦٩ - (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) أي : أضاءت الأرض بنور خالقها ومالكها ، والمراد بالأرض : أرض المحشر وهي الأرض المبدلة من الأرض المعروفة ، وذلك يوم القيامة إذا تجلى الحق - جل جلاله - لفصل القضاء ، وعن الحسن والسدى : تفسير نور الرب بالعدل وهو من باب الاستعارة ، وقد استعير لذلك بالقرآن في مواضع متعددة منه ، أي : وأشرقت الأرض بما يقيمه ربها فيها من الحق والعدل ويبسطه - سبحانه - من القسطاس في الحساب ، ووزن الحسنات والسيئات ، واختار الزمخشري هذا الرأي وحقق « أولًا » تلك الاستعارة ، بتكررها في القرآن العظيم ، « وحققها ثانيًا » بإضافة النور إلى اسمه - تعالى - لأنه - سبحانه -

---

(١ ، ٢) سورة غافر من الآية : ١٦

(٣) سورة الروم الآية : ٢٥

الحق العدل ، « وعيَّنها ثالثًا » بإضافة اسمه – تعالى – (رَبّ) إلى الأرض « ربها » لأن العدل هو الذى تزين به الأرض ، « ورابعاً » بما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجىء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق ؛ لأنه كله تفصيل الحق ، « وأيدها خامسًا » بالعرف العام فإن الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك ، « وسادسًا » بقوله ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » فإنه يقتضى أن يكون العدل نورًا ، « وسابعًا » بأنه ختم الآية بنفى الظلم .

وقال الآلوسى : ولعل الأوفق ما يشعر به كثير من الأخبار أن قوله – سبحانه وتعالى – : (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) إشارة إلى تجليه – عز وجل – على خلقه يوم القيامة لفصل القضاء ، وقد يعبر عنه بالإتيان ، وقد صرح به فى قوله تعالى : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَآئِكَةُ »(1) . ولا يبعد أن يكون هذا النور الوارد فى الحديث الصحيح : « إن الله لا ينام ولا ينبغى أن ينام يخفض قِسْطَه ويرفعه ، ويُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابُه النور » . (وَوُضِعَ الْكِتَابُ) أى : وضعت صحائف الأعمال بأيدى الملائكة للحساب ، (وَجِىٓءَ بِالنَّبِيِّينَ) لِيُسألوا هل بلغوا أممهم ، وقيل : ليحضروا حسابهم ، (وَالشُّهَدَآءِ) أى : جميع الشهداء من الملائكة وأمة محمد والجوارح والمكان .

وأيًّا ما كان فالشهداء جمع شاهد (وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) أى : وقضى بين العباد بالعدل ، (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) بنقص ثواب أو زيادة عقاب ، على ما جرى به وعده – تعالى – لعباده ، على أن الظلم لا يتصور فى حقه تعالى ، فإن الأمر كله له – عز وجل – وهو أحكم الحاكمين قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا(2) ... » الآية .

٧٠ – (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) :

أى : وأعطيت كل نفس جزاء عملها من خير أو شر كاملًا غير منقوص ، وهو – سبحانه – أعلم بفعلهم فلا يفوته شىء من أعمالهم .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢١٠

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٤٧

(وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(زُمَرًا) : جماعات متفرقة متتابعة .

(حَقَّتْ) : وجبت وثبتت .

(مَثْوَى) : مأوى ومسكن .

التفسير

٧١ــ (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

بدأت الآية الكريمة تفصيل توفية كل نفس ما عملت بيانًا لكيفيتها ، ويخبر الله فيها عن حال الكفار وكيف يساقون إلى النار ، والسّوق يقتضى الحث على المسير بعنف وإزعاج ، وهو الغالب ، ويشعر بالإهانة وهو المراد هنا ، أى : سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجًا متفرقة متتابعة بعضها فى أثر بعض مرتبة حسب ترتيب طبقاتهم فى الضلال والكفر والفساد : (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) ليدخلوها ، وكانت قبل مجيئهم غير مفتوحة ، فهى كسائر أبواب السجون ، لا تزال مغلقة حتى يأتى أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها ،

فتفتح ليدخلوها ، فإذا دخلوها أغلقت عليهم (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ) أى : وقال لهم حراسها وزبانيتها الغلاظ الشداد على سبيل التقريع والتوبيخ والتنكيل : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ؟ سفراء عن الله من نوعكم تفهمون ماينبئونكم به ، ويسهل عليكم مراجعتهم والأخذ عنهم (يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ) أى : يقرءون عليكم آيات ربكم المنزلة لمصلحتكم فى القرآن وغيره ، ويقيمون عليكم الحجج والبراهين الدالة على صحة ما دعوكم إليه وأمروكم به ونهوكم عنه (وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) ويخوفونكم ويحذرونكم لقاء عذاب يومكم هذا ، وهو وقت دخولكم النار ؛ لأن المنذر به فى الحقيقة العذاب ووقته .

وقد شاع استعمال اليوم والأيام فى أوقات الشدة والمحنة ، وقيل : المراد به يوم القيامة لاشتماله على هذا الوقت .

واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل الشرع ؛ لأنهم وبخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وإنذارهم ، ولو كان قبح الكفر معلومًا بالعقل دون الشرع لقيل: ألم تعلموا بما أودع الله فيكم من العقل قبح كفركم ، ولا وجه لتفسير الرسل بالعقول لإباء الأفعال المستندة إليها عن ذلك .

ولمن قال بوجوب الإيمان عقلًا أن يقول : إنما وبخوهم بالكفر بعد التبليغ ؛ لأنه أبعد عن الاعتذار وأحقّ بالتوبيخ والإنكار ، ولأن معرفة الله تجب أولًا بالعقل ، ثم يتلوها الإيمان برسله (قَالُوا بَلَىٰ) أى : قال الكافرون مقرين معترفين : قد أتانا رسل ربنا ، وتلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا لقاء يومنا هذا (وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) أى : وجبت وثبتت كلمة الله - تعالى - المقتضية للعذاب على الكافرين . وهذا الكلام منهم اعتراف لا اعتذار ، والمراد بكلمة العذاب : كلام الله الذى حكم عليهم بالشقاوة ، وأنهم من أهل النار لسوء اختيارهم ، أو قوله تعالى لإبليس : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »[1] . ووضع الكافرين موضع ضميرهم للإيماء إلى عِلِّيَّة استحقاقهم العذاب ، والزُّمَر جمع زُمْرة وهى الجماعة كما تقدم فى المفردات .

٧٢- (قِيلَ ادْخُلُوٓا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) :

أى : قيل لهم يوم القيامة : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، أى : ماكثين فيها لا خروج

(١) سورة ص من الآية : ٨٥

لكم منها ولا زوال لكم عنها ، والقائل يحتمل أن يكون الخزنة ، وترك ذكرهم للعلم بهم مما قيل ، ويحتمل أن يكون غيرهم ، ولم يذكر ؛ لأن المقصود ذكر هذا القول الذى يبعث فى النفوس الخوف والرعب من غير نظر إلى قائله ، وقال بعض الأجلة : أبهم القائل لتهويل المقول (فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) أى : قَبُحَ وساء مكان الكافرين جهنم لتكبرهم ، وفى التعبير بالمتكبرين إيماء إلى أن دخولهم النار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسل المنذرين لهم — عليهم الصلاة والسلام — وهو فى معنى التعليل بالكفر ؛ لأنه سبب كفرهم ، ولا ينافى التعليل قبل ذلك بثبوت كلمة العذاب عليهم ؛ لأن حكمه وقضاءه عليهم بدخول النار بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له — سبحانه — فى الأزل ، وكذا قوله — عز وجل — : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . . الآية » . فهناك سببان قريب وبعيد والتعليل بأحدهما لا ينافى التعليل بآخر .

(وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أمان عظيم عليكم .

(طِبْتُمْ) : طهرتم من دنس المعاصى وطاب مثواكم .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) : كُلُّ الثناء لله وحده .

(صَدَقَنَا وَعْدَهُ) : حققه بالبعث والجنة .

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ) : ملَّكنا أرض الجنة .

التفسير

٧٣ - (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) :

هذا إخبار من الله عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون بلطف وتكريم إلى الجنة زمرًا ، أى : جماعة بعد جماعة متتابعة ، المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم ، الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أمثالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف يناسبه .

والمراد بالسَّوْق هنا : الحث على السير بالإسراع إلى الإكرام ، بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة وتعجيلهم إلى العقاب والآلام ، كما أنه للمشاكلة أيضًا .

وقوله - سبحانه - : (إِلَى الْجَنَّةِ) يدفع إيهام الإهانة ، على أنه قد يقال : إنهم لما أحبوا لقاء الله أحب الله لقاءهم ، فلذا حثوا على دخول دار الكرامة .

واختار الزمخشرى أن المراد بسوقهم سوق مراكبهم ؛ لأنهم لا يُذْهَبُ بهم إلا راكبين ، وتُعُقِّب بأن كون جميع المتقين لا يذهب بهم إلا راكبين يحتاج إلى دليل ، بل ورد العكس ، ففى صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « آخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ويركب أخرى وتَسْفَعُهُ النار مرة[١] فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذى نجانى منك ، لقد أعطانى الله - تعالى - شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين ، فترفع له شجرة فيقول : أى رب أَدْنِنِى من هذه الشجرة فلأستظل بظلها ، فأشرب من مائها ، فيقول الله تعالى : يا ابن آدم لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها ، فيقول : لا يارب ويعاهده ألا يسأله غيرها ، وربه يعذره ؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه) . اهـ : آلوسى .

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) حتى إذا بلغوها وقد فتحت لهم أبوابها كما قال تعالى : « جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »[٢] . ويدل ذلك على تقديم الفتح ، كأن

---

(١) أى : تلفحه وتصيبه إصابة يسيرة إذا مر بها .

(٢) سورة ص الآية : ٥٠

حراس الجنة فتحوا أبوابها ووقفوا منتظرين لهم ، كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه وتقف منتظرة له ، وفى ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ) أى : قال لهم حفظتها وحراسها : أمان عظيم عليكم طهرتم فى الدنيا من فعل المعاصى وكرمتم فى الآخرة بما نلتم من النعيم والكرامة ، وقوله تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) عطف على فتحت أبوابها وجواب إذا مقدر أى : حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب وتلقى الملائكة لهم بالسلام — حتى إذا كان هذا — سَعِدُوا وفرحوا بقدر ما يلقون من نعيم وإكرام ، وإذا حذف الجواب فى مقام التكريم والإنعام ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل .

واستدل المعتزلة بقوله تعالى : (طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا) حيث رتب فيه الأمر بالدخول على الطيب والطهارة من دنس المعاصى ،على أن أحدًا لا يدخل الجنة إلّا وهو طيب طاهر من المعاصى ، إما لأنه لم يفعل شيئًا منها أو لأنه تاب عما فعل توبة مقبولة فى الدنيا ، أما من لم يتب عن معاصيه فلا حظ له فى دخولها .

ورد بأنه وإن دل على أن أحدًا لا يدخلها إلّا وهو طيب لكن قد يحصل ذلك بالتوبة المقبولة ، وقد يكون بالعفو عنه أو الشفاعة له أو بعد تمحيصه بالعذاب فلا متمسك فيها للمعتزلة .

٧٤ — (وَقَالُوا۟ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) :

(وَقَالُوا۟ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ) عطف على : « قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا » أو على الجواب المقدر أى : دخلوها ، (وَقَالُوا۟ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ) .

والمعنى : يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم ، والملك الكبير ، يقولون عند ذلك : الثناء لله وحده الذى حقق لنا ما سبق أن وعدنا به على ألسنة رسله الكرام ، (وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ) أرض الجنة التى أقاموا فيها واتخذوها مقرًا ومتبوأً ، وإيراثها تمليكها وتمكينهم من التمتع فيها تمكين الوارث فيما يرثه ، وقيل : ورثوها من أهل النار ، فإن لكل منهم مكانًا فى الجنة كتب له بشرط الإيمان ، (نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ)

أى : ينزل ويسكن كلٌّ منا فى أى مكان أراده من جنته الواسعة (فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) من كلام الداخلين عند الأكثر، والمخصوص بالمدح مقدر، أى: فنعم أجر العاملين هذا الأجر أو الجنة ، ولم يقولوا: فنعم أجرنا، بل قالوا: فنعم أجر العاملين للتعريض بأهل النار أنهم غير عاملين، وقال مقاتل: هو من كلام الله ، أى: قال الله : فنعم أجر العاملين هذا الأجر العظيم الذى نلتموه .

(وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(حَآفِّينَ) : محيطين محدقين .

(وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) : فصل بين الخلائق بالعدل .

التفسير

٧٥ - (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

لما ذكر الله حكمه فى أهل الجنة والنار ، وأنه أنزل كلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد محيطون به من كل جانب ، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه :ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل فى قضايا الخلق وقضى الأمر وحكم بالعدل ، ولهذا قال - عز وجل -: (وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) أى :حكم بين الخلائق بالعدل ، ثم قال : (وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أى : نطق الكون جميعه : الحمد لله رب العالمين الذى عدل فى

حكمه ، قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد فى قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ »[1] واختتم بالحمد فى قوله تعالى : (وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

قيل : إنهم يحمدونه إظهارًا للرضا والتسليم ، وقال ابن عطية : هذا الحمد خَتْمٌ للأمر يقال عند انتهاء فصل القضاء ، أى : إن هذا الحاكم العدل ينبغى أن يحمد الله عند تمام حكمه وكمال قضائه ، ومن هذه الآية جعلت (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) خاتمة المجلس فى العلم .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١

سورة غافر

مكية وآياتها خمس وثمانون

تسمى هذه السورة أيضًا سورة المؤمن ، لأن الله – تعالى – ذكر فيها قصة رجل مؤمن من آل فرعون ، وتسمى سورة الطَّوْل لقوله تعالى : « ذِى الطَّوْل » .

وهى أولى الحواميم السبع التى قال فيها ابن عباس – رضى الله عنهما – : « إن لكل شىء لبابًا ولباب القرآن آل حم أو قال : الحواميم » .

وكان يقال لهن : (العرائس) كما قال مِسْعَر بن كِدَام ، رواه القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن .

وروى عن عبيد الله قال : « إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلًا ، فمر بأثر غيث ، فبينما هو يسير ويتعجب منه ، إذ هبط على روضات دَمِثَات[1] فقال : عجبت من الغيث الأول ، فهذا أعجب وأعجب ، إن مثل الغيث الأول مثل عُظْم[2] القرآن : وإن مثل هؤلاء الروضات الدَّمِثَات ، مثل آل حم فى القرآن » أورده البغوى[3]

مقاصد السورة

بدأت هذه السورة بوصف القرآن العظيم بأنه منزل من عند الله العزيز العليم ، وأنه لا يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا .

ثم بينت أن تكذيب نبينا محمد ﷺ ليس أمرًا خاصًا به ، بل هو أمر عام لكل الأنبياء والمرسلين ، وأن الله عاقب كل أولئك المكذبين .

ثم بينت أن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للمؤمنين ، وأنه – تعالى – يُرى عباده آياته ، ويرزقهم من السماء ، وأنه رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ، لينذرهم يوم التلاق والحساب .

---

(١) جمع دمثة بفتح فكسر ، وهى الأرض السهلة الرخوة (٢) بوزن قفل ، أى : أكثره (٣) انظر ابن كثير .

وبينت أنه ـ تعالى ـ أمر رسوله أن ينذر قومه : « يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » وأنه ـ تعالى ـ يقضى بين عباده بالحق .

ثم بينت أن الله ـ تعالى ـ أهلك من قبل قريش من القرون المكذبة من هم أشد منهم قوة وآثارًا فى الأرض ، وأن عليهم أن يمروا بأرضهم ليتعظوا بما أصابهم ، ثم حكى قصة فرعون مع موسى ـ عليه السلام ـ وتكذيبه له ، وقصة مؤمن آل فرعون ووعظه لقومه ، وطلب فرعون من هامان أن يبنى له صرحًا ، لعله يبلغ أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى : « وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ » حيث وقى الله ـ تعالى ـ موسى سيئات ما مكر فرعون وقومه ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

ثم ذكرت أن الله ـ تعالى ـ أمر نبيه ﷺ بالصبر ووعده النصر فقال : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » .

وبينت أنه لا يستوى الكافر والمؤمن ، كما لا يستوى الأعمى والبصير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله تعالى قال : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وذكرت بعض آيات الله فى كونه ، حيث جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا ، وجعل الأرض قرارًا والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، وأنه خلق عباده من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم أطفالًا ثم ليبلغوا أشدهم ، ثم ليكونوا شيوخًا ، ومنهم من يتوفى ـ من قبل .

ثم توعدت المكذبين والمجادلين فى آيات الله بالأغلال فى أعناقهم ، والسلاسل يسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون .

ثم ذكرت أن الله أرسل رسلًا من قبل نبينا محمد ﷺ منهم من قصه الله عليه ومنهم من لم يقصصه عليه ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله .

ثم بينت فى ختامها أن الله عاقب مكذبى الرسل من قبل نبينا ﷺ وأنهم لما رأوا بأس الله آمنوا بالله وحده ، وكفروا بما كانوا به مشركين : « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾)

المفردات :

(قَابِلِ التَّوْبِ) : قابل التوبة والرجوع عن المعاصى إلى الطاعة .

(ذِى الطَّوْلِ) : صاحب الغنى والسعة - كما قال مجاهد - .

التفسير

١ ، ٢ - (حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) :

تقدم الكلام على مثل (حمٓ) من الحروف المقطعة التى بدئ بها بعض السور كالبقرة، وآل عمران ، فارجع إليه إن شئت .

ووجه مناسبة أولها لآخر الزُّمر ، أنه - تعالى - لمَّا ذكر هناك مايؤول إليه حال الكافرين وحال المؤمنين ، ذكر جل جلاله هنا أنه غافر الذنب وقابل التوب ، ليكون ذلك استدعاءً للكافرين إلى الإيمان وترك ما هم فيه .

وَبَيْنَ السورتين أوجهٌ عديدة من المناسبة ، وحسبك فى ذلك أنه ذُكِرَ فى كلتيهما أهوالُ يوم القيامة ، وأحوال الكفرة فيه وهم فى المحشر وفى النار ، وقد فُصِّل فى هذه ما لم يفصل فى تلك .

وفى تناسق الدرر : وجه إيلاء الحواميم السبع لسورة الزمر ، تآخى المطالع فى الافتتاح بتنزيل الكتاب - انظر الآلوسى .

٣ ـ (غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) :
هذه كلها صفات للفظ الجلالة فى الآية التى قبلها .

ومعنى الآيتين : تنزيل القرآن كائن من الله الغالب فلا يقهر ، العليم بكل شىء فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، غافر الذنب الذى سلف ، وقابل التوبة فى الحاضر والمستقبل ، من كل من تاب عن معاصيه من عباده ، شديد العقاب لمن طغى وآثر الحياة الدنيا على مرضاة ربه ، صاحب الخير الكثير ، فلا يليق بعاقل أن ينصرف عن مرضاته ، لَا إله إلَّا هو إليه المرجع والمآب ، فيحاسب كل امرئ على ما قدمت يداه .

وهذه الآية تفتح باب المتاب للتائبين مهما كانت ذنوبهم ، وفى سعة رحمة الله يقول ـ سبحانه ـ : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »[1] فليبادر كل عبد بالتوبة من ذنبه قبل أن يلتحق بربه بمعاصيه وآثامه ؛ ليفوز بغفرانه ويتقى سوء عذابه .

وينبغى أن ينصح المؤمن التقى غيره حتى ينصلح حاله ، أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد ابن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذا بأس ، وكان يَفِد إلى عمر بن الخطاب ، ففقده عمر فقال : ما فعل فلان بن فلان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين يتابع فى الشراب ـ قال : فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان ، سلام عليك : فإنى أحمد إليك الله الذى لَا إلَـٰهَ إلَّا هُو (غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه ، وأن يتوب الله عليه .

فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده ويقول : « غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ » قد حذرنى الله عقوبته ، ووعدنى أن يغفر لى .

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان ، وزاد : « فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ، ثم نَزَع فأحسن النَّزْع[2] ، فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم زلّ زَلّة فسددوه ووفقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه » .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٥٣
(٢) أى : ثم تاب فأحسن التوبة .

(مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(مَا يُجَادِلُ) : ما يخاصم .

(فَلَا يَغْرُرْكَ) : فلا يخدعك .

(تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَادِ) : تنقلهم فيها للتجارة .

(وَالْأَحْزَابُ) : الذين تحزبوا على الرسل فى كل أمة .

(لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) أى : ليبطلوه ويزيلوه به .

التفسير

٤ - (مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَادِ) :

الجدال : الخصام والنقاش ، وهو نوعان : جدال بالباطل ، وجدال بالحق ، وقد سجل الله فى هذه الآية الكفر على الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل ، بالطعن فيها ، يريدون إدحاضها وإبطالها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) .

أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحَلِّ مشكلها ، واستنباط معانيها وأحكامها ، ورد أهل الزيغ عنها فهو جهاد عظيم فى سبيل الله .

وعندما نجادل أهل الكتاب فى عقائدهم ونصوص كتبهم ، نجاذلهم بدون اعتداء ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ »[1] .

وقد كانت قريش تجادل فى القرآن غرورًا بما هم فيه من السعة والتجارة ، من مكة إلى الشام وإلى اليمن وبالعكس ، فأوصى الله نبيه ﷺ أن لا يغره ولا يخدعه تقلبهم فى تجارتهم فى البلاد ، وسلامتهم من العقاب مع كفرهم ، فإنه متاع فى الدنيا قليل ، عاقبته الهلاك فى الدنيا ، ثم العذاب يوم القيامة عقوبة لهم إن بقوا على كفرهم ، « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِى لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يفلته » .

والمعنى الإجمالى للآية : ما يجادل فى آياتنا الواضحة البيان ، المؤيدة بالبرهان ، إلا الذين كفروا بالحق مع وضوحه ، فلا يغررك أيها الرسول ولا يخدعك تقلبهم فى التجارة من بلد إلى بلد ، وما هم فيه من الغنى والسعة ، فإن ذلك متاع قليل بعده الهلاك وسوء العقاب ، كما قال تعالى فى سورة آل عمران : « لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ »[2] .

وكما قال فى سورة لقمان : « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ »[3] .

ثم سلى الله نبيه بما حدث للرسل قبله من أقوامهم فقال :

٥ ـ (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُواْ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) :

القوم قد يؤنث بتأويل الجماعة ، وهو هنا كذلك ، ولذا أنث له الفعل فى كذبت والأخذ يستعمل بمعنى الحبس والمنع تارة ، وبمعنى الإهلاك تارة أخرى .

والمعنى : كذبت قبل قريش قوم نوح والأحزاب من بعدهم ـ كذب هؤلاء جميعًا ـ رسلهم الذين دعوهم إلى نبذ الأوثان ، وعبادة الواحد الديان ، وحاولت كل منهم حبس رسولهم ليقتلوه ، وهموا بذلك ، ومنهم من قتلوه ، وخاصموا بالباطل من القول ليقضوا

---

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٤٦

(٢) الآيتان : ١٩٦ - ١٩٧

(٣) الآية : ٢٤

به على الحق ، فأهلكتهم واستأصلتهم ، فكيف كان عقابى لهؤلاء؟ كان عقابًا مستأصلًا رادعًا لسواهم ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يَغْرُرْكَ تقلب قومك فى البلاد وما هم فيه من الحرية والسعة ، فهم أهْوَن على الله من أولئك .

٦ - (وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) :

أى : ومثل قضائه على الذين تحزبوا على رسلهم من قبلك يا محمد - مثل قضائه ذلك - حقت كلمة ربك وقضاؤه بالإهلاك للمشركين من قومك - إن بقوا على كفرهم وشركهم ، لأنهم أصحاب النار مثل سابقيهم ، فالعلة واحدة ، وهى أنهم أصحاب النار وأهلها مثلهم ، لكونهم كفارًا معاندين ، مهتمين بقتل نبيهم اهتمام أولئك بقتل أنبيائهم .

(ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(ٱلْعَرْشَ) العرش فى اللغة : بمعنى سرير الملك ، وسيأتى الكلام عليه فى التفسير .

(جَنَّٰتُ عَدْنٍ) : بساتين إقامة ، من عَدَن بالمكان أقام به .

التفسير

٧ـ (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ... الآية) :

يقول القرطبى : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتًا وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة .

ويقول الآلوسى : هو جسم عظيم له قوائم الكرسى ، وماتحته بالنسبة له كحلقة ملقاة فى فلاة : اهـ .

وقد جاء فى وصفه ووصف أجسام حملة العرش آثار متعارضة ، لا نرى داعيا لذكرها فى تفسيرنا هذا .

والذى ينبغى أن نؤمن به هو أن لله عرشا عظيما هو مصدر أوامره للملائكته ، ليقوموا بما يكلفون به فى كون الله ـ تعالى ـ .

وإذا كان العرش هو الكرسى فإنه أكبر من السموات والأرض ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » . ولابد أن يكون تكوينه أعجب وأعظم من السموات والأرض ، وأن تكون فيه الهيمنة عليها والارتباط بها ، وهو حادث أوجده الله بعد أن لم يكن ، فقد جاء فى الحديث الصحيح : « كان الله ولا شىء معه ، وكان عرشه على الماء » .

ويجب الإيمان بأن العرش ليس موضعا لجلوس الله ـ تعالى ـ فإنه ـ تعالى ـ ليس كالأجسام حتى يحتاج إلى مكان « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[(1)] .

ولم أر حديثا صحيحا فى كون العرش له قوائم ، فإذا كان العرش يسع السموات والأرض فما حاجته إلى القوائم ، وعلى أى شىء يرتكز والسموات دونه كحلقة ملقاة فى فلاة ، إنه حينئذ يكون شأنه كشأن السموات فى أنها بغير عمد ترونها ، فهو مرفوع مثلها

(١) سورة الشورى من الآية : ١١

فى الفضاء الكونى بقدرة الله التى ربطت بين الكون برابطة الجاذبية ، وبما هو فوق مستوى العقول ، فسبحان العزيز الحكيم القدير العليم .

ومن العلماء من قال : إنه غير الكرسى وإنه أعظم منه ، استنادا إلى حديث أخرجه ابن مردويه بسنده عن أبى ذر قال : قال ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السموات السبع عند الكرسى إلّا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى ، كفضل الفلاة على تلك الحلقة » .

وظاهر الآية أن الملائكة يحملون العرش حقيقة ، ونحن نقول : ما المانع من أن يكون المراد من حملهم إياه كونهم الرؤساء الذين يحملون مسئولية تبليغ أوامر الله لسائر ملائكته فى كونه . والله تعالى أعلم .

والملائكة الذين حول العرش كثيرون لا يحصى عددهم سوى الله — تعالى — وقيل : هم سبعون ألف صف يطوفون مهللين مكبرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صَفٍّ قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم ، رافعين أصواتهم بالتكبير والتهليل ، ومن ورائهم مائة ألف صَفٍّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل ، ما منهم واحد إلّا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر ، وقيل غير ذلك .

ولكننا نقول : إن محاولة ضبط أعدادهم من الرجم بالغيب ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ »[1] .

والمعنى الإجمالى للآية : الملائكة الذين يحملون عرش الرحمٰن ويبلغون أوامر ربهم منه ، والملائكة المنبثون حول العرش ، ينزهون الله — تعالى — عن كل ما لا يليق به ، قائمين بحمد ربهم على نعمه التى لا غاية لها ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا قائلين فى استغفارهم : (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا) فرحمتك تتسع لذنوبهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم ، فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عن معاصيهم وآثامهم ، واتبعوا ما أمرتهم به من الطاعات ، واحفظهم من عذاب الجحيم .

---

(١) سورة المدثر من الآية : ٣١

٨، ٩ - (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

ومن دعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة قولهم : ربنا وأدخل الذين رجعوا عن ذنوبهم واتبعوا سبيلك ، جنات عَدْن يقيمون بها هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وتجاوز عن تقصير بعضهم حتى يلحقوا فى الدرجة من هم أعلى منهم من آل بيتهم ، لتقر أعينهم وتستريح نفوسهم ، إنك أنت العزيز الذى تنفذ مشيئته ولا ترد كلمته ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، وحكمه وقضائه ، وجَنِّبهم جزاء السيئات ووبالها ، ومن تُجنبه جزاءها يوم القيامة فقد رحمته ، حيث لطفت به فنجيته من عقوبتها وذلك هو الفوز العظيم الذى لا غاية وراءه .

قال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل ، فيقول : إنى إنما عملت لى ولهم ، فيلحقون به فى الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾)

شروع فى بيان أحوال الكفرة أهل النار ، إثر بيان أحوال المؤمنين أهل الجنة ، فالأمور تتميز بضدها فضل تميز .

وقد دلت الآية على أن الكافرين يمقتون أنفسهم ويبغضونها ، وذلك حينما يعلمون أنهم أصحاب النار .

وقيل : إنهم يمقتونها حين يقول لهم الشيطان : « فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم »[1] ، وقيل : حين دخولهم النار .

ونحن نقول : إنه لا مانع من أن يمقتوا أنفسهم فى ذلك كله . والذين ينادونهم هم خزنة النار ، وقيل : هم المؤمنون ليضاعفوا حسرتهم .

ومعنى الآية : إن الذين كفروا بالله ورسله ، ينادَوْن حين يمقتون أنفسهم لتسببها فى عذابهم – ينادون – حينئذ من الملائكة أو من المؤمنين : لَبُغْضُ الله لكم أشد من بغضكم لأنفسكم ، حين تُدْعَوْن من أنبيائكم إلى الإيمان فتكفرون ، مع وضوح الحجة وسطوع البرهان ، فحق عقابكم لبغض الله لكم بسبب كفركم .

(قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾)

أفادت هذه الآية أن الكفار يسترحمون ويطلبون من الله الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا من الصالحات ما فاتهم ، ويتوسلون إلى ذلك ، بأنه قادر على تحقيق ما يطلبون فقد أماتهم مرتين ، وأحياهم مرتين ، فهم يرجون الإحياء مرة ثالثة .

والمقصود من إماتة المرة الأولى : أنه جعلهم تراباً لا حياة فيه قبل خلق آدم منه ، قال ابن مسعود : هذه الآية كقوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[2] . وبهذا قال ابن عباس والضحاك وغيرهما .

وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحْيُوا فى قبورهم ، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة وقيل غير ذلك .

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٢٢

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨

ويرجح ابن كثير الرأى الأول ثم يقول : بل هو الصواب الذى لا شك فيه .

واستعمال الإماتة فى ذلك على سبيل التجوز ، والمراد : جعل الشىء لا حياة فيه ، وليس على معنى صرف الحياة عنه بعد أن كانت موجودة فيه ، كما تقول : ضَيِّقْ فَمَ القِربة ، أى جعله ضيقًا ، وليس على معنى أنه كان واسعًا فضيقه .

ويلخص ابن كثير مواقف الكفار فى يوم القيامة فيقول : والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله فى عَرَصات القيامة كما قال : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ »[1] . فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال ، سألوا الرجعة أشدَّ مما سألوا أول مرة فلا يجابون ، قال الله تعالى : «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[2] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها ، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم : « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ »[3] ، « رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ »[4] وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال ، وقدموا بين يدى كلامهم مقدمة ، وهى قولهم : (رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) أى : قدرتك عظيمة ، فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا ، وأننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا : (فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ) فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا للدار الدنيا ، فإنك قادر على ذلك ، لنعمل غير الذى كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون ، فأجيبوا : أن لا سبيل إلى رجوعكم إلى الدنيا ، وهذا الجواب ملحوظ غير ملفوظ ، وقد دلت عليه الإشارة فى قوله تعالى :

---

(١) سورة السجدة الآية : ١٢

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

(٣) سورة فاطر الآية : ٣٧

(٤) سورة المؤمنون الآيتان : ١٠٧ — ١٠٨

(ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾)

فهذه الآية تعليل للمنع من إجابتهم ، المطوى بين الآيتين ، أى : ذلكم المنع بسبب أن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه ، بل تجحده وتنفيه ، فأنتم هكذا تكونون وإن رددتم إلى الدنيا ، كما قال تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » . انتهى بتصرف .

« فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِىِّ الْكَبِيرِ » : فهو الحكم العدل فى خلقه ، ولا حُكم يوم القيامة لسواه ، وقد حكم للمؤمنين بالجنة هم فيها خالدون ، وحكم على الكافرين بالنار هم فيها لا يخرجون .

(هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾)

الخطاب هنا لجميع البشر ، فآيات الله مرئية لعباده جميعا ، وحجته قائمة عليهم .

والمعنى : الله هو الذى يريكم آياته الدالة عليه فى السموات والأرض ، من الذرة إلى المجرة ، وهو الذى يطعمكم ويسقيكم ، حيث ينزل لكم من السماء أمطارا هى السبب الأول فى أرزاقكم ، فمنها تشربون ، وبها تروون زروعكم وبساتينكم ، فيخرج لكم بفضله أنواعا مختلفة من الطعام والفاكهة العجيبة الشأن ، الكثيرة الألوان – صيفًا وشتاء – وكلها تسقى بماء واحد ، ويفضل الله بعضها على بعض فى المذاق والغذاء والدواء ، ومايتذكر ويتعظ إلا من يرجع إلى الله عن طاعة نفسه الأمارة بالسوء ، والشيطان الذى يفسد على الناس عقولهم ، وأفكارهم ، ويرجع عن تقليد الآباء فى عقائدهم ، فهذا هو المنيب إلى الله ، الراجع إليه من الصوارف عن الهدى .

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾)

الخطاب هنا للمؤمنين ، والمراد من دعاء الله : عبادته .

والمعنى : فاعبدوا الله وحده مخلصين له الدين ، فهو الذى يستحق العبادة وحده ، ولو كره الكافرون .

أخرج الإمام أحمد بسنده إلى أبي الزبير محمد بن مسلم بن مِدْرسى المكى قال : « كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : لا إِلَـٰهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لاحول ولا قوة إلَّا بالله ، لا إِلَـٰهَ إِلَّا الله ولا نعبد إِلَّا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إِلَـٰهَ إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . قال : « وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دُبُرَ كل صلاة » أى : يرفع صوته بهن عقب كل صلاة .

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) : عَلِيّ القدر جليل الشأن فى ذاته وفى صفاته .

(ذُو الْعَرْشِ) : صاحبه وخالقه لا عن حاجة إليه .

(يُلْقِي الرُّوحَ) : ينزل الوحى .

(يَوْمَ التَّلَاقِ) : يوم يلتقى الخلق بالخالق ، والمخلوقون بعضهم ببعض فى زحام القيامة .

(يَوْمَ هُم بَارِزُونَ) : ظاهرون لا يخفى على الله منهم شىء .

التفسير

١٥ - (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) :

أمر الله فى الآية السابقة أن يدعو المؤمنون ربهم مخلصين له الدين ، وجاءت هذه الآية لتبين رفْعَةَ قدر الله تعالى فى ذاته وفى صفاته وفى سماواته وفى عرشه ، وأنه تعالى هو صاحب الشأن فى الوحى ، يلقيه على من يشاء من عباده الخيرة .

وإطلاق اسم الروح على الوحى ، لأنه للأرواح بمنزلة الروح للأبدان ، فكما تحيى الأبدان بالروح ، تحيى الأرواح بالوحى ، فهى بدونه فى حكم الميتة .

ومن العلماء من فسر الروح بالقرآن ، لقوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا »[1] ، ومنهم من فسره بجبريل ، لقوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ »[2] وكلها معان متقاربة ، بل متلازمة .

ويوم التلاق هو يوم القيامة ، حيث يلتقى المخلوق بخالقه للحساب والجزاء ، ويلتقى جميع البشر بعضهم ببعض فى موقف الحساب والقضاء ، وهو يوم عصيب على العصاة والكافرين ، فلهذا كان من أهم أغراض الوحى لجميع الأنبياء إنذار أممهم أهوال هذا اليوم ليجتنبوها بالإيمان والطاعة .

والمعنى الإجمالى للآية : هو الله رفيع القدر فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، وفى سماواته ، وجميع كائناته ، صاحب العَرْش المحيط بهذا الكون ، ينزل الوحى من أمره على

---

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٩٣ ومن الآية : ١٩٤

من يختاره من عباده الأكرمين ، ليخوف الناس من يوم قيام الناس لرب العالمين ، وتلاقيهم معه للحساب والجزاء ، حتى يجتنبوا الموبقات ، ويفعلوا المنجيات من الطاعات .

١٦ - (يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) :

هذه الآية لزيادة توضيح المخاوف فى يوم « التَّلَاقِ » ولفظ « يَوْمَ » هنا بدل من « يَوْمَ التَّلَاقِ » فى الآية السابقة ، وقد بينت هذه الاية أن الخلائق يومئذ ظاهرون لله ، فلا يخفى على الله منهم شيءٌ مما عملوه فى الدنيا ، فقد أحاط بكل شيء علمًا ، كما أنهم ظاهرون بعضهم لبعض ، حيث زالت الجبال والتلال ، واستوت الأرض فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ، ولا يوجد ملجأ يختفى فيه أحد عن الله أو عن غريمه .

وقد كان فى الدنيا ملوك ملكهم الله على عباده ، وجعل لهم الحكم فى رعاياهم ، وقد زال سلطانهم فى الآخرة ، وأصبحوا مسئولين كسائر رعاياهم ، بل أشد منهم ، فإن الملك يومئذ لله الواحد القهار .

وفى هذا اليوم العصيب يُسْأَلُ من قِبَل الله : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) فيجاب من جهة الخلائق : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

قال القرطبى نقلًا عن النحاس : وأصح ماقيل فيه ، ماروا‌ه أبو وائل عن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله - عز وجل - عليها ، فيؤمَرُ مُنَادٍ ينادى : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ؟ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورًا وتلذذًا ، ويقوله الكافرون غمًّا وانقيادًا وخضوعًا » ، ثم قال : والقول صحيح عن ابن مسعود ، وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

والمعنى الإجمالى للآية مَعَ ماقبلها مما يرتبط بها : يلقى الله الوحى من أمره على من يختاره من عباده لتبليغ رسالته ، لينذر يوم التلاقى ، يوم جميع الناس ظاهرون لعلم الله ، لا يغيب عنه شيء من أفعالهم وذواتهم وصفاتهم ، ظاهرون بعضهم لبعض ، أولهم وآخرهم لا يحجب بعضهم عن بعض حجاب ، فقد سويت الأرض ، وأزيل منها الجبال والهضاب ، فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ، وحينئذ يسأل الملائكة فى هذا اليوم العصيب والمحشر الرهيب : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) فيجيب الخلائق مؤمنهم وكافرهم : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

١٧ - (الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) :

بعد ما يقر الخلائق بأن الملك يوم القيامة لله الواحد القهار ، يجابون من قبل الله على ألسنة الملائكة : اليوم تجزى كل نفس بما كسبته فى دنياها ، الحسنة بعشر أمثالها إلى ماشاء الله ، والسيئة بمثلها ، لا ظلم اليوم فى محكمة العدل الإلٰهى ، ولا بطء فى صدور الأحكام ، إن الله سريع الحساب ، لا يشغله حساب أحد عن حساب آخر ، ولا حساب أمة عن حساب أخرى ، فإنه - تعالى - ليس محتاجًا إلى تذكر أعمال العباد أو الاطلاع عليها فى كتب أعمالهم ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وكما يرزقهم فى ساعة واحدة يحاسبهم فى ساعة واحدة ، فكل واحد منهم يتلقى كتاب عمله ، ويرى فيه حسناته وسيئاته والحكم الذى صدر له أو عليه ، قال تعالى : « وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »[1]. كما أنه تعالى ليس محتاجًا إلى شهود « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[2] . نسأل الله الأمان فى ذلك اليوم الرهيب .

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(يَوْمَ الْآزِفَةِ) : يوم القيامة ، سمى بالآزفة لقربه ، من أزِفَ الشىء يأزَفُ أزَفًا إذا قرب ، فهو من باب تعب .

(كَاظِمِينَ) : كاتمين مع الضيق .

(١) سورة الإسراء الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة النور الآية : ٢٤

(حَمِيمٍ) : قريب يهتم لأمرهم .

(خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ) : هي النظرة الخفية إلى ما يعاب في العلانية .

التفسير

١٨ - (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) :

يأمر الله نبيَّه في هذه الآية بأن ينذر قومه المشركين ويخوفهم من يوم القيامة المسمى : بالآزفة لقربه ، فإن ما بقي من عمر الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منه قليل جدا ، وقد ظهرت أشراطها وعلاماتها فضلا عن أن كل آت قريب .

ونظير هذه الآية : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ »[1] أي : قربت الساعة ، وقد وصف الله يوم الآزفة بأن القلوب تصل فيه إلى الحناجر ، وهذا على سبيل المجاز ، مثل قوله تعالى : « وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا »[2] .

وتراهم في هذه الشدّة كاظمين كاتمين لغمهم وكربهم ، لا يتكلمون إلَّا بإذن الله ، وليس لهم شفيع يطاع ، فقد منع الله الشفاعة للكفار ، قال تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ »[3] فلا شفيع لهم في هذا اليوم حتى يطاع .

والمعنى الإجمالي للآية : وخوِّف المشركين - أيها الرسول - من يوم الساعة القريبة ، حيث يشتد فيه الأمر حتى كأن القلوب تبلغ الحناجر كاظمين كاتمين لهمومهم وأحزانهم وكروبهم ، ليس للظالمين في ذلك اليوم صديق يشفق عليهم ، ولا شفيع مأذون له حتى يطاع وتقبل شفاعته .

---

(١) سورة النجم الآية : ٥٧

(٢) سورة الأحزاب من الآية : ١٠

(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٢٨

١٩ - (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) :

أى : يعلم الأعين الخائنة ، قال ابن عباس : هو الرجل ينظر إلى المرأة ، فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسّس بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره ، وقد علم الله - عز وجل - منه أنه يود لو نظر إلى عورتها .

وقال مجاهد : « هى مسارقة الأعين إلى مانهى الله عنه » وهذا أشمل ، وكما يعلم الله خائنة الأعين ، يعلم ماتخفيه صدور الناظرين : هل يزنون لو خلوا بها أو لا .

٢٠ - (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) :

والله يُجَازى من نظر إلى المحارم ومن لم يَنظُر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش ومن عزف قلبه عنها .

والأوثانُ التى يعبدونها من دون الله لاتقضى بشىء ؛ لأنها لا تعلم شيئًا ولا تملك ، إن الله هو السميع لأقوال خلقه البصير بأعمالهم ، فيجازيهم حسب أعمالهم .

* (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢))

المفردات :

(عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ) أى : آخر أمرهم ، وعاقبة كل شىء آخره .

(وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ) أى: مايبقى بعدهم كالقلاع والحصون . والمفرد : أثر مثل : سبب وأسباب .

(مِن وَاقٍ) : من مانع يمنع عنهم عذاب الله .

(بِالْبَيِّنَاتِ) أى : المعجزات الواضحات .

التفسير

٢١ - (أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ) :

المعنى : أقعد الكفرة المكذبون برسالتك ولم يسيروا فى الأرض فينظروا ما آل إليه حال من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود وأمثالهم . كانوا هم أشد منهم قوة وتمكنا فى التصرفات ، وأقوى آثارًا فى الأرض مثل : القلاع الحصينة ، والمدائن القوية ، وقد حكى الله عن قوم منهم : أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا مما لا يقدر عليه هؤلاء كما قال تعالى : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ »[١] ومع هذه القوة العظيمة ، والبأس الشديد لم يتركوا يمرحون ، بل حقت عليهم كلمة الله ، فأخذهم أخذًا وبيلًا . تركهم أثرًا بعد عين ، وما كان لهم واق من الله يمنع عنهم العذاب الذى حل بهم ، ويقيهم منه ، وأريد بذلك التنبيه على عجز شركائهم عن إنقاذهم من الهلاك .

٢٢ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

أى : سبب ذلك الأخذ البالغ الغاية فى الشدة أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات البينة ، والأحكام الواضحة التى تنير لهم طريق الحق . فقابلوهم ربما أتوهم بالإعراض والكفر . فأهلكهم الله ، ودمر عليهم بسبب ما صنعوا ؛ لأنه - سبحانه - متمكن مما يريده غاية التمكن قادر عليه .

(شَدِيدُ الْعِقَابِ) : لمن كذب برسله وآياته .

---

(١) سورة الأحقاف ، جزء من الآية ٢٦

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(بِآيَاتِنَا) : جمع آية وهى المعجزة .

(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) المراد بالسلطان هنا : الحجة الواضحة والبرهان البيِّن .

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أى : وما مكرهم إلّا فى خسران .

(أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) أى : أن يغير عبادتكم لى بعبادتكم لغيرى .

(إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم) أى : جعلته معاذًا لى ولكم ، بمعنى : اعتصمت به ، يقال : استعذت بالله وعذت به معاذًا وعياذًا : اعتصمت .

التفسير

٢٣ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

فى ذكر قصة الإرسال إلى فرعون ومن معه وتفصيل ماجرى . تسلية لنبيه ﷺ عن تكذيب من كذبه من قومه . وبشارة له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة ، كما جرى

لموسى بن عمران . فإن الله أرسله بالمعجزات البينة والدلائل الواضحة ، والحجج القاهرة فكذبوه فأغرقهم الله .

والمراد بالسلطان المبين : ما أريد بالآيات ، ونُزِّل تغاير الوصفين منزلة تغاير الذاتين . وحكى الطبرسى أن المراد بالآيات : حجج التوحيد . وبالسلطان المبين : المعجزات الدالة على نبوته - عليه السلام - التى أرسل بها .

٢٤ - (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ) :

فرعون ملك القبط بالديار المصرية وهامان وزيره فى مملكته ، وقارون قيل : هو الذى كان من قوم موسى . وقيل : غيره ، وكان مقدم جيوش فرعون . وذِكْرهما من بين أتباع فرعون لمكانهما فى الكفر وكونهما أشهر الأتباع .

(فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ) : يعنون أن موسى - عليه السلام - ساحر فيما أظهره من المعجزات التى حملوها على السحر . كذاب فى دعواه أن الله أرسله ، قالوا ذلك لما عجزوا عن معارضته .

٢٥ - (فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ اقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) :

لم يكترث موسى - عليه السلام - بقولهم عنه : ساحر كذاب ، ومضى فى تبليغ رسالة ربه بالبرهان القاطع الدال على أن الله - تعالى - أرسله إليهم ، وحينما عجزوا عن معارضته دفعهم العجز عن المعارضة والغيظ الذى تمتلئ به قلوبهم إلى الانتقام ممن آمن به ، حيث قالوا : (اقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ) أى : اصنعوا بهم ما كنتم تفعلونه من قتل أبنائهم وترك نسائهم أحياء كى تصدوهم عن مظاهرة موسى - عليه السلام - وتأييده ، فالأمر بالقتل والاستحياء حدث من فرعون مرتين ، المرة الأولى كانت قبل ميلاد موسى - عليه السلام - لأجل الاحتراز من وجود من يقتل فرعون بعد أن أخبره الكهنة والمنجمون بأن أحد بنى إسرائيل سوف يسلبه ملكه ، أو كان غرضه إذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، والمرة الثانية كانت بعد إرسال موسى - عليه السلام - إليه وإيمان من آمن معه كما يقول

قتادة؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى - عليه السلام - فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل غيظًا وحنقًا ، وزعمًا منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته ظنًّا منه أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكه على يده ، وقد شغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان إلى أن خرج بنو إسرائيل من مصر ، فأغرق الله فرعون وجنوده وهذا معنى قوله تعالى : (وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أى : إلّا فى خسران وهلاك لايغنى عنهم شيئًا ، وهذه الجملة جىء بها فى تضاعيف ماحكى عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بطلان ما أظهروه من الوعيد ، واضمحلاله بالمرة ، والإظهار فى موضع الإضمار حيث لم يقل وما كيدهم لذمهم بالكفر ، والإشعار بعلة الحكم .

٢٦ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) :

وقال فرعون لقومه : اتركونى أقتل موسى ، وكان فرعون إذا هَمّ بقتل موسى - عليه السلام - كَفُّوه بقولهم : ليس هذا مما تخافه فهو أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلّا ساحر يقاومه ساحر مثله . وإنك لو قتلته أدخلت على الناس الشبهة ، واعتقدوا أنك عجزت عن مظاهرته بالحجة ، وعدلت إلى المقارعة بالسيف ، ولكنه كان قتالًا سفاكًا للدماء فى أهون شىء . فكيف لايقتل من أحسّ أنه هو الذى يثل عرشه ويهدم ملكه . ولكنه مع ذلك كان يخشى إذا هَمّ بقتله أن يعاجل بالهلاك ، فقوله : (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ... الآية) كان تمويهاً على قومه ، وإيهاماً بأنهم هم الذين يكفونه - وما كان يكفه فى واقع الأمر إلّا ماتمتلىء به نفسه من هول وفزع وقوله : (وَلْيَدْعُ رَبَّهُ) تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه أى : لا يهولنكم مايذكر عن ربه فإنه لاحقيقة له ، وأنا ربكم الأعلى .. قال ذلك استهانة بموسى حسب ظاهره . كما يقال : ادع ناصرك فإنى منتقم منك . أما بحسب باطنه فكانت ترتعد فرائصه . ويضيق صدره . وتتلاحق أنفاسه خوفًا من دعاء موسى لربه ، ثم يقول تبريرًا لما زعم أنه يريد قتله ، للتمويه على أتباعه :

(إِنِّيٓ أَخَافُ) إن لم أقتله (أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) أى : أن يغير ما أنتم عليه ــ وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام التى أمرهم بنحتها وعبادتها لتكون لهم شفعاء عنده كما كان كفار مكة يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

(أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ) كما أنى أخاف أن يظهر فى أرضكم الفساد إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية ، بأن يُحيل أمنكم إلى اضطراب وتناحر ، فتتعطل المزارع والمكاسب ، ويهلك الناس قتلًا وضياعًا ، وقال قتادة : عنى بالفساد طاعة الله ــ تعالى ــ فأراد أن الفساد فى الأرض بظهور طاعة الله .

٢٧ ــ (وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) :

أى : وقال موسى ــ عليه السلام ــ لقومه بعد ما تردد على لسان فرعون من حديث قتله : (إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم) . والخطاب فى قوله : (وَرَبِّكُم) لمن آمن بموسى أى : اعتصمت بالله ربى وربكم واستعذت به ويؤيده قوله تعالى فى سورة الأعراف : « قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا »[1] وليس الخطاب لفرعون وقومه ، فإن فرعون ومن معه لا يعترفون بربوبيته ــ تعالى ــ وفى قوله : (رَبِّى وَرَبِّكُم) بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه . ويعتصموا به اعتصامه ؛ فإن فى تظاهر النفوس تأثيرًا قويا فى استجلاب الإجابة وصدَّر ــ عليه السلام ــ كلامه بإنَّ تأكيدًا ، وتنبيهًا على أن السبب المؤكد فى دفع الشدة هو العياذ بالله ــ تعالى ــ ولم يُسَمِّ موسى فرعون حين استعاذ بالله ؛ بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة بقوله : (مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) لتعميم الاستعاذة والإشعار بعلة الجرأة على الله ــ تعالى ــ ؛ وأراد بالتكبر الاستكبار عن الإذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة ومهانة صاحبه ؛ وضم إليه عدم الإيمان بيوم الجزاء ، ليكون أدل وأدل على أنه بلغ الغاية فى الطغيان ، فمن اجتمع فيه التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة . فقد استكمل القسوة والجرأة على الله ــ تعالى ــ ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٢٨

(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) أى : من أهله وأقاربه .

(يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) أى : يخفيه ويستره عن فرعون وقومه .

(جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ) أى : بالآيات التسع الدالة على صدقه .

(يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) أى : إن لم ينزل بكم كل الذى يعدكم به ، بل بعضه هلكتم .

وَوَعَدَ يستعمل فى الخير والشر وهو فى الخير أكثر ، ويتعدى بنفسه وبالباء . وقالوا : أوعده خيرًا وشرًّا بالألف أيضًا وهو فى الشر أكثر .

(مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ) : وهو الذى جاوز القصد وجانب الاعتدال فى أموره .

التفسير

٢٨ - (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) :

ذكر بعض المفسرين أن اسم هذا الرجل حبيب ، وقيل : شمعان قاله السهيلى ، وهو أصح ما قيل فيه ، وهو قبطى من أهل فرعون وأقاربه آمن بموسى سرًّا . قال السُّدى : وهو

الذى نجا مع موسى - عليه السلام - وهذا الرجل هو المراد بقوله : « وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَامُوسَىٰ . . . الآية »[1] وهو قول مقاتل ، وقال ابن عباس : لم يكن مؤمن من آل فرعون غيره وغير امرأة فرعون ، ولم يتعرض له فرعون بسوء ؛ لأنه كان ابن عمه وصاحب شرطته كما قال الآلوسى ،أو لأنه كان يكتم إيمانه عن فرعون وملئه دون موسى - عليه السلام - ومن اتبعه - قال هذا الرجل المؤمن لقومه - : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ) أى : أتقصدون قتله كراهة أن يقول : ربى الله وحده من غير رَوِيَّة منكم فى أمره ، وقد جاءكم بالمعجزات الظاهرة الشاهدة على صدقه ، والأدلة الكثيرة ، وهذا استنكار من ذلك الرجل عظيم ، وتبكيت لهم شديد ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة. وما لكم من شىء تأخذونه عليه إلا كلمة الحق التى نطق بها وهى قوله : (رَبِّىَ اللهُ) والحال أنه قد جاءكم بالبينات التى عاينتموها وشاهدتموها لا ببينة واحدة،جاءكم بها من عند ربكم الإله الحق. وهذا استدراج لهم إلى الاعتراف واستنزال لهم عن رتبة المكابرة . ثم أخذهم بالاحتجاج فقال :

(وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) ولم يكن ذلك لشك فى رسالته وصدقه ، ولكن تلطفًا فى كفِّهم أى : لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج فى دفعه إلى قتله :

(وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) أى : وإن يكن موسى رسولًا صادقًا ، يصبكم بعض العذاب الذى يتوعدكم به إن لم يصبكم كله إذا تعرضتم له بسوء وفيه مبالغة فى التحذير فإنه إذا حذرهم من إصابة بعض ما يتوعدهم به أفاد أنه مهلك مخوف ، فما بالهم إذا أصابهم كله ، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب ، ولهذا قدَّم احتمال كونه كاذبًا ، وقيل : المراد يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا . وهو بعض ما يعدهم ، كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالًا عندهم .

(إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) : استئناف قصد به احتجاج آخر ذو وجهين :

أحدهما : أنه لو كان مسرفًا كذابًا لما هداه الله إلى البينات ، ولما أيده بتلك المعجزات .

وثانيهما : أنه إذا كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ، ولعله أراد به

---

(١) سورة القصص ، من الآية : ٢٠

المعنى الأول ، وأوهمهم أنه أراد الثانى لِتَلْيِين شَكِيمَتهم . وفيه تعريض بفرعون بأنه مسرف فى القتل والفساد ، كذاب فى ادعائه الربوبية لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة .

(يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ) أى : غالبين فيها .

(مِن بَأْسِ اللهِ) أى : من عذابه .

(مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ) أى : ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسى .

(إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) أى : طريق الصلاح والصواب ، وهو خلاف سبيل الغى والضلال .

(يَا قَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ) : يطلق القوم على الرجال ليس فيهم امرأة . والواحد : رجل أو امرؤ من غير لفظه .

(مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) : يعنى أيام العذاب التى عذب فيها المتحزبون على الأنبياء .

(مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ) أى : مثل جزاء ما دأبوا عليه واعتادوه من الكفر وإيذاء الرسل .

(يَوْمَ التَّنَادِ) أى : يوم القيامة وسمى بذلك؛ لأنه ينادى فيه بعضهم بعضًا للاستغاثة ، أو يتصايحون فيه بالويل والثبور .

التفسير

٢٩ - (يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) :

هذا من قول مؤمن آل فرعون ،وفى قوله :(يا قوم) دليل على أنه قبطى ، ولذلك أضافهم إلى نفسه ليكون أقرب إلى قبول وَعْظِهِ حيث قال : (يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ) أى : غالبين على بنى إسرائيل فى أرض مصر لا يستطيع أحد أن يقاومكم فيها فى هذا الوقت . فاشكروا الله على ذلك وآمنوا .

وكون المراد بالأرض : أرض مصر قول السُّدى وغيره .

(فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا) قال ذلك تحذيرًا لهم من نقم الله إن كان موسى صادقًا ، أى : فلا تفسدوا أمركم ، ولا تتعرضوا لعذاب الله بقتله ، فإن العذاب إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد ، والاستفهام إنكارى . وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض إليهم خاصة ونظم نفسه معهم فيما يسوءهم من مجيء بأس الله - تعالى - تطييبًا لنفوسهم ، وإيذانًا بأنه مُناصح لهم ساع فى تحصيل ما يُجْلِيهم ، ودفع ما يرديهم سعيه فى حق نفسه ليتأثروا بنصحه ، وعندما سمع فرعون ذلك الذى نصحهم به قال : (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ) أى : ما أشير عليكم إلّا بالذى أراه وأستصوبه لنفسى من قتله ، (وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) أى : وما أهديكم بهذا الرأى من قتل موسى والإيمان بى إلا سبيل الصلاح والصواب . وما أعلمكم إلا ما أعلم . ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر . يعنى أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول .

ولقد كذب حيث كان مستشعرًا للخوف الشديد من جهة موسى ، ولكنه كان يتجلد ، ولولاه ما استشار أحدا أبدا .

٣٠ـ (وَقَالَ الَّذِىٓ ءَامَنَ يَاقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) :

زادهم من الوعظ والتخويف وقد قوى الله ـ تعالى ـ نفسه ، وثبت قلبه ، فلم يرهب فرعون ، ولم يعبأ به ، وأتى بنوع آخر من التهديد والتحذير فقال : (يَاقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم ..) الآية . أى : إنى أخاف عليكم من تكذيب موسى والتعرض له بالسوء أن يحل بكم مثل ما حلّ بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية فى أيامهم بمعنى وقائعهم التى أذيقوا فيها وبال أمرهم ، والظاهر جمع اليوم ؛ لأن لكل حزب يومًا ولكنه أغنى عنه إضافته إلى الأحزاب مع التفسير بما بعده فى قوله تعالى :

٣١ـ (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ) :

أى : إنى أخاف أن يحل بكم مثل جزاء دأب قوم نوح وعاد وثمود ، أى : عادتهم الدائمة من الكفر وتكذيب الرسل وسائر المعاصى .

(وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ) المراد بهم قوم لوط (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ) فلا يعاقب بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام ، يعنى أن عذابهم وتدميرهم كان عدلًا ؛ لأنهم استحقوا ذلك بأعمالهم ، وهو أسلوب بلغ الغاية فى البلاغة لنفى الظلم عنه ـ تعالى ـ حيث جعل المنفى فيه إرادة الظلم ، ومن كان بعيدًا عن إرادة الظلم لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد .

٣٢ـ (وَيَاقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) :

خوفهم العَذاب الأخروى بعد تخويفهم بالعَذاب الدنيوى . وأفصح عن إيمانه إما مستسلمًا موطنًا نفسه على القتل ، أو واثقًا بأنهم لا يقصدونه بسوء ، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق ، ويومُ التناد هو : يوم القيامة . سمى بذلك؛ لأنه ينادى فيه بعضهم بعضًا للاستغاثة ، أو يتصايحون فيه بالويل والثبور ، أو لتنادى أهل الجنة وأهل النار فينادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة ، وأصحابُ الجنة أصحابَ النار ، كما جاء فى سورة الأعراف ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يراد التذكير بكل نداء فى القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة .

وقرئ : (يَوْمَ التَّنَادّ) بتشديد الدال ، من ندَّ البعير : إذا هرب ، أى : يوم الهرب والفرار لقوله تعالى : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . . . الآيات »[1] ، وفى الحديث : « إن للناس جولة يوم القيامة يندّون[2] يظنون أنهم يجدون مهربًا » وعن الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هربًا فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلّا وجدوا ملائكة صفوفًا فبينما هم يموج بعضهم فى بعض إذْ سمعوا مناديًا : أقبلوا إلى الحساب .

٣٣ - (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) :

أى : أن يوم التناد هو اليوم الذى تولون فيه عن الموقف منصرفين عنه إلى النار ، أو فارين منها إذا سمعوا زفيرها ولا ينفعهم الهرب - كما روى عن الضحاك آنفًا - ورُجح هذا القول بأنه أتم فائدة وأظهر ارتباطًا بقوله تعالى : (مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ) أى : من دافع ومانع يعصمكم فى فراركم من عذاب الله . وقال قتادة : ما لكم فى الانطلاق إلى النار من مانع يمنعكم منها .

(وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) أى : ومن خلق الله فى قلبه الضلالة وفق اختياره فما له أحد يهديه طريق النجاة أصلًا ، وكأن الرجلَ المؤمن يئس من قبولهم نصحه فقال ذلك ، ووبخهم على تكذيب الرسل السابقين فقال :

(وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾)

---

(١) سورة عبس الآيات : ٣٤ ، ٣٥ (٢) أى : يهربون .

المفردات :

(حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ) أى : مات ، يقال : هلك الشىء هلكًا وهلاكًا وهلوكًا ومهلكًا بفتح الميم ، وأما لامها فمثلثة ، والاسم : الهُلْكُ مثل قُفْل .

(مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) أى : مشرك مرتاب بمعنى : شاك فى وحدانيته - تعالى - .

(بِغَيْرِ سُلْطَانٍ) : أى : بغير حجة وبرهان .

(كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ) أى : عَظُمَ جِدَالُهم بُغْضًا عند الله .

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) أى : كما طبع الله وختم على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك يختم على كل قلب متكبر جبار حَتَّىٰ لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق .

التفسير

٣٤ - (وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَازِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) :

قيل : إن هذا من قول موسى - عليه السلام - وقيل : هو من تمام ونمط مؤمن آل فرعون . ذكَّرهم قديم عتوهم على نبيهم : يوسف بن يعقوب[1] بعثه الله رسولًا إلى القبط من قبل موسى . وأيده بالآيات الظاهرة الدالة على صدقه ، وقال ابن جريج : أيده بالبينات وهى : الرؤيا ، كذلك قال ، والله أعلم بهذه البينات التى أيده الله بها .

(فَمَازِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ) من الدين أى : أسلافكم كانوا فى شك ، فنسب ما للآباء إليهم ، لاشتراكهم فى الضلال والتكذيب ، وقد دعاهم إلى عبادة الله وحده فقال : « أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ »[2] . واستمر يدعوهم إلى دين التوحيد حتى (إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا) ضموا إلى الشك فى رسالته تكذيب رسالة من بعده .

(كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) أى : مثل هذا الإضلال الشديد يضل الله من هو مسرف فى العصيان شاك فيما تشهد به البينات ، لتعصبهم لدينهم ، والإمعان فى التقليد .

---

(١) وقيل : غيره .

(٢) سورة يوسف من الآية : ٣٩ .

٣٥ - (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيٓ آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ آتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) :

قال الزجاج : المراد بالذين يجادلون : كل مسرف مرتاب وهم يجادلون فى الله بغير حجة صالحة للتمسك بها لا نقلية أتتهم من جهته - تعالى - على أيدى الرسل - عليهم السلام - ولا عقلية استنبطوها من الكون .

(كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا) هذا من كلام مؤمن آل فرعون ، وقيل : ابتداء خطاب من الله - تعالى - وهو تقرير لما أشعر به الكلام السابق من ذمهم ، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام ، أى : كبر بُغْضًا جدالُهم فى آيات الله بغير حجة - كَبُر بُغْضًا - عند الله وعند المؤمنين .

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) أى : كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين ، فكذلك يطبع على قلب كل متكبر جبار ، فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بغير حق ، وقرئ بتنوين قلب ، فما بَعْدهُ صِفتُه ، ووصف القلب بالتكبر والتجبر ؛ لأنه منبعهما .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(ابْنِ لِى صَرْحًا) أى : بناء عاليًا كالقصر ، من صَرَحَ الشىءُ : إذا ظَهَر .

(أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ) أى : طرقها وأبوابها جمع سبب وهو كل مايتوصل به إلى الشىء .

(وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ) أى : وما مكره واحتياله فى إبطال آيات الله لموسى إلَّا فى خسران وهلاك ، يقال : تَبَّ الله فلانًا أى : أهلكه ، وتبَّت يداه أى : هلكت أو خسرت .

التفسير

٣٦ـ (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) :

لما قال مؤمن آل فرعون ما قال ، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن فى قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يُخْفه عنهم ، وإن لم يصح ثَبَّتهم على دينهم ، لذلك أمر وزيره هامان ببناء الصرح فقال : (يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا) أى : قصرًا عاليًا مكشوفًا لا يخفى على الناظر وإن بَعُد (لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) رجاء أنْ أبلغ الأسباب أى : الطرق كما روى عن السدى ، وقال قتادة : هى الأبواب وهى : جمع سبب ويطلق على ما يتوصل به ، والمراد بها كما قال – سبحانه – :

٣٧ـ (أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) :

أى : لعلى أبلغ طرقها وأبوابها . وفى إبهام الأسباب ثم بيانها تفخيم لشأنها ، وتشويق للسامع إلى معرفتها .

(فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ) أى : فأنظر إليه . وأراد بذلك أن يعلم الناس بفساد رأى موسى وقوله : إنِّى رسول من رب السموات – أن يعلم الناس – أنه إذا كان رسولا منه فهو ممن يصل إليه . وذلك بالصعود إلى السماء وهو محال لا يقوى عليه الإنسان ، ومنشأ ذلك جهله بالله –تعالى– وكيفية استنبائه ، وزعمه أنه –سبحانه– مستقر فى السماء ، وأن رسله كرسل الملوك يلاقونه ويصلون إلى مقره وهو – عز وجل – منزه عن صفات المحدثين والأجسام ولا يحتاج رسله الكرام إلى ما يحتاج إليه رسل الملوك ، وهذا منه نفى لرسالة موسى من الله – تعالى – ولا تَعرُّض فيه لنفى الصانع المرسِل لَهُ : (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا) يحتمل أن يكون عنى به أن موسى كاذب فى دعوى الرسالة أو أن يكون عنى به أنه كاذب فى ادعاء أن له إلهًا غيره كما قال : (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي) وهذا يوجب شك فرعون فى أمر الله .

(وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ) أى : ومثل ذلك التزيين البليغ زين لفرعون عمله السيء فانهمك فيه انهماكًا قويًا لا يرعوى عنه بأى حال ، (وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ) أى : عن سبيل الهدى والرشاد ، والفاعل فى الحقيقة هو الله – تعالى – ولم يفعل – سبحانه – كلاًّ من التزيين والصد إلا لأن فرعون طلبه بلسان استعداده ، واقتضى ذلك سوء اختياره : وقرأ

الحجازيان ، والشامى ، وأبو عمرو صَدٌّ : بالبناء للفاعل وهو : ضمير فرعون . على أن المعنى ، وصَدٌّ فرعونُ الناس عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات ويؤيده :

(وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) أى : وما مكره فى إبطال آيات موسى إلّا فى خسارة وهلاك .

(وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) أى : أدلكم على طريق الهدى وهى الجنة .

(إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) أى : يُمتع فيها قليلًا ثم تنقطع وتزول .

(وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) أى : دار الاستقرار والخلود .

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) أى : من عمل خطيئة فى الدنيا فلا يجزى فى الآخرة إلّا بما يعادلها .

(يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى : بغير تقدير وموازنة ، بل أضعافا مضاعفة .

التفسير

٣٨ – (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) :

هذا من تمام ماقاله مؤمن أهل فرعون أى : اقتدوا بى فى الدين أهدكم سبيلًا يبلغكم المقصود وهو دخول الجنة ، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغى والضلال .

٣٩ـ (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) :

أى : إن هذه الحياة الدنيا تَمتُّع أو مُتَمَتَّعٌ به يسيرٌ لسرعة زوالها ، أجْمل لهم القول أولًا حيث قال : (اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) ثم فصل فافتتح بذم الدنيا ، وتصغير شأنها ؛ لأن الإخلاد إليها رأس كل شر ، ومنه تتشعب فنون ما يؤدى إلى سخط الله — تعالى — ثم ثنى بتعظيم الآخرة فقال : (وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) لأنها الحياة الباقية وهى دار الاستقرار والخلود ودوام ما فيها .

٤٠ـ (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

ذكر الله فى الآية الأعمالَ سيِّئَها وحَسَنَها وعاقبةَ كل منهما لِيُثَبِّط عمَّا يتلف ويُنَشِّطَ لما يُزْلِفُ فقال — سبحانه — :

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) أى : من عمل خطيئة فى الدنيا تعدى بها حدود الله فلا يجزى فى الآخرة إلَّا بما يماثلها عدلًا من الله — جل شأنه — .

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى : ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن مصدق بالله — جل شأنه — بقلبه ، ومؤمن بالأنبياء — عليهم السلام — فأُولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير تقدير وموازنة بالعمل ، بل أضعافًا مضاعفة ، تفضلًا منه — تعالى — ورحمة ، وفى تقسيم العمال إلى ذكر وأُنثى للاهتمام والإشعار بالشمول ، والآية تفيد أن الإيمان شرط فى اعتبار العمل والاعتداد به والثواب عليه .

وبعد أن قدم هذا المؤمن حديثه لقومه ناصحًا وموجهًا بذكر الدنيا وبيان أنها دار متاع وأنها لا تغنى عن المرء شيئًا يوم الجزاء ، لما تدعو إليه من شر وفساد ، ثم بين أن التعلق بالآخرة ، والتفانى فى الإقبال عليها سبب السعادة والنعيم ، لأنها دار الخلود والدوام — بعد هذا الحديث — كرر نداء قومه إيقاظًا لهم من سنة الغفلة واعتناء بالمنادى إليه ومبالغة فى توبيخهم على تثاقلهم عن الاستماع لنصحه ، كما تبين ذلك الآيات القادمة .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٧٥١٤ س ١٩٨٦ - ٢٥/٠٠٤


Bibliotheca Alexandrina
04402872

